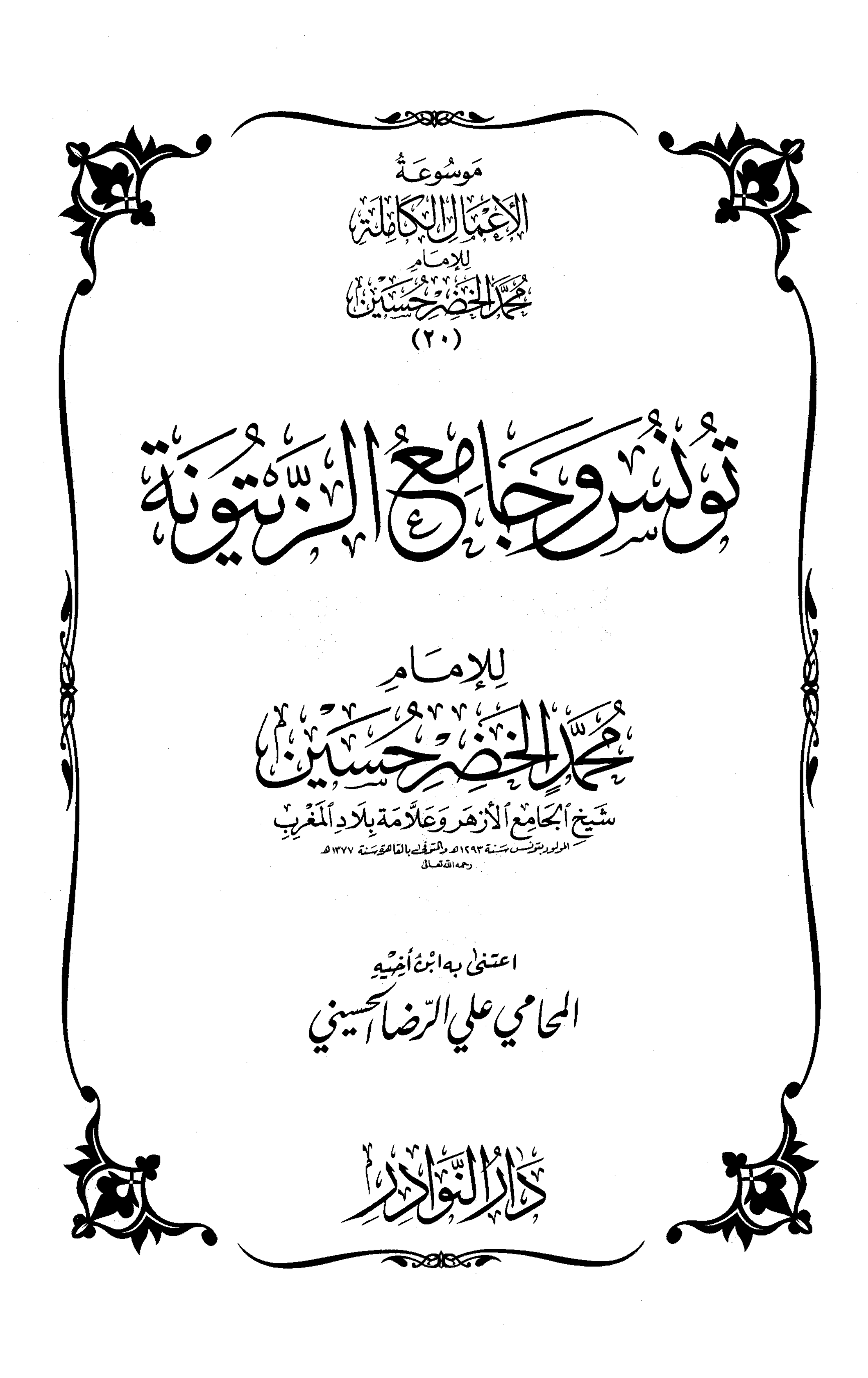


موسوعة

الأعمال الكاملة

للإمام

محمد الخضر حسين

(٢٠)

تونس وجامع الزيتونة

للإمام

محمد الخضر حسين

شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب

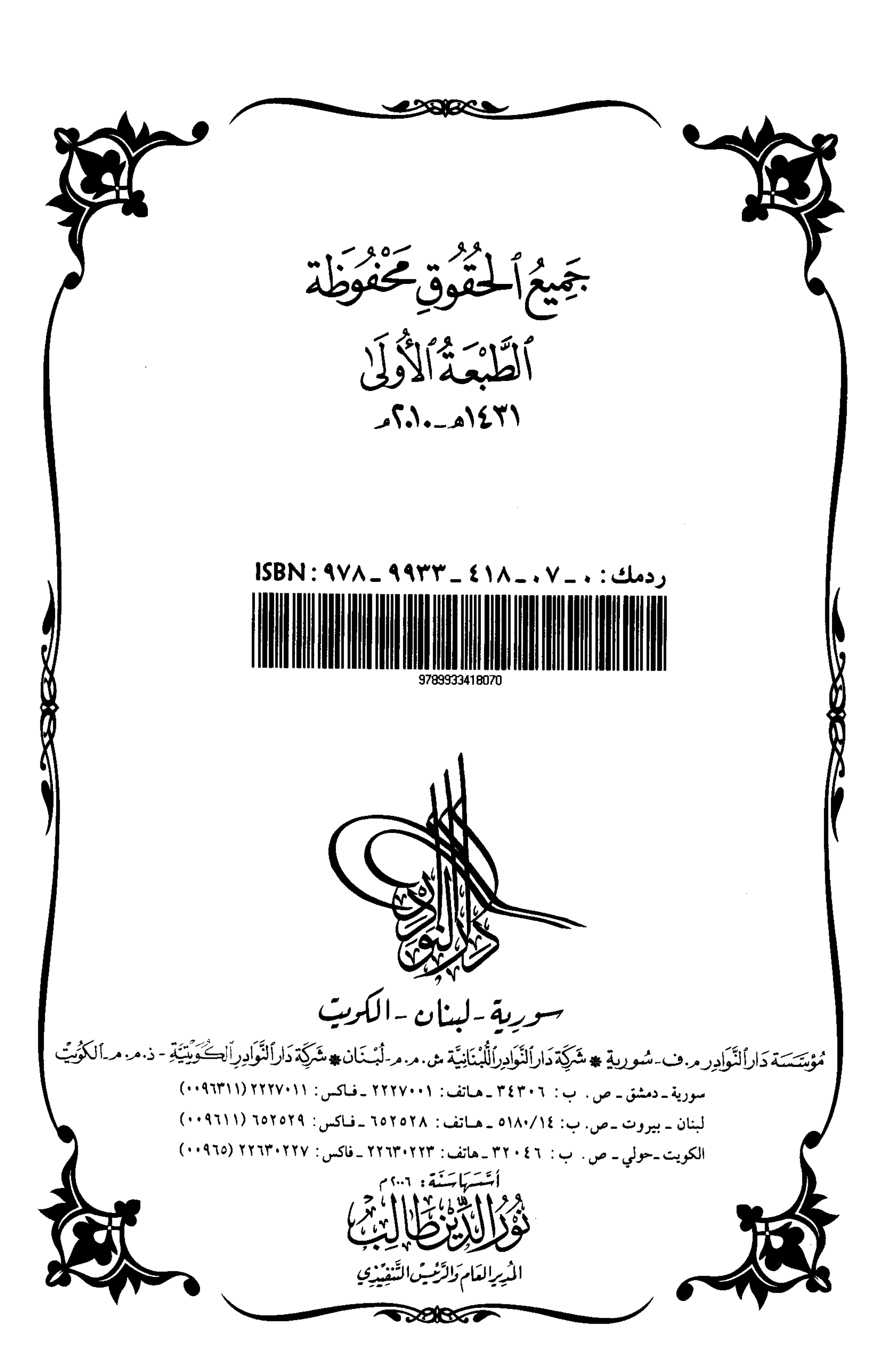
المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ

رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه

المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

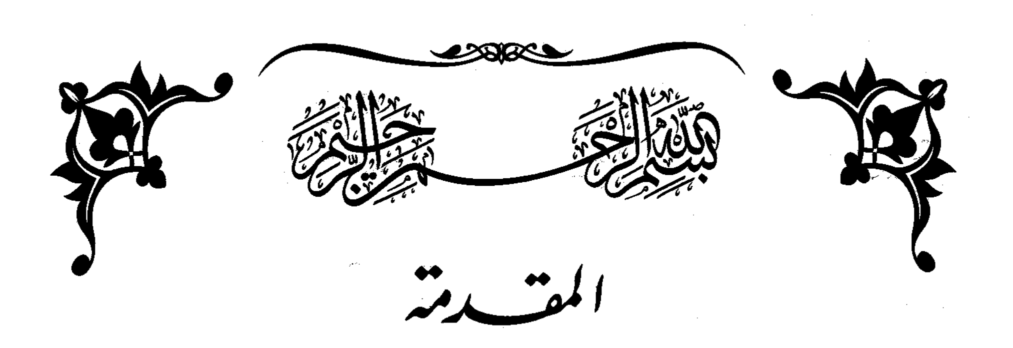
ردمك : ٩٧٨ـ ٩٩٣٣ـ ٤١٨ـ ٠٧ـ ٠ : ISBN
9789933418070

دار النوادر

سورية - لبنان - الكويت

مؤسسة دار النوادر م. ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش. م. م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ. م. م - الكويت
سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)
لبنان - بيروت - ص. ب: ٥١٨٠/١٤ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة: ٢٠٠٦م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي



المقدمة

لئن كان العلامة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين لم يدع باباً من أبواب العلوم الدينية والعربية إلا زانه، ولئن كان ـ رضوان الله عليه ـ علَماً إسلامياً خفاقاً في العالم الإسلامي أجمع، يجاهد في ميادينه الواسعة بقلمه وفكره، فإنه ـ رحمه الله ـ كان دائم الذكر والحنين لتونس التي ولد فوق أديمها الطاهر، وتحت سمائها الصافية، من أسرة شرف وعلم، فخصَّها ببعض الدراسات والتراجم لبعض عظماء رجالها ومعاهدها، وازدهارها العلمي والأدبي، مما يطالعه القارئ في هذا الكتاب.

ففي الجنوب التونسي «نفطة» ولد الإمام ـ رحمه الله ـ، وفي تونس العاصمة، وفي جامعها الإسلامي «جامع الزيتونة» ـ الذي حفظ وحافظ على دين وعروبة المغرب العربي الكبير، بما دفع من أجيال مؤمنة قادت الثورات، فحررت الأرض، وحمت العرض، في هذا الجامع دَرَسَ ثم درَّس، وتولى القضاء في «بنزرت»: وخاض غمار الصحافة، وأسس مجلة «السعادة العظمى»، فأغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي، ولم يدع درباً إلا سلكه في سبيل تحرير تونس، فألهب حماسة الجماهير فوق منابر المساجد والميادين، وفي الدروس الخاصة والعامة، وبثَّ في طلبة العلم روح النضال، ولما شعرت دولة الاحتلال بالأثر الذي أحدثه في الجماهير، لا حقته، وضيقت

عليه السبل، فخرج فراراً بدينه إلى الشرق حاملاً قلماً بليغاً، وعقلاً مؤمناً، يتابعه حكم بالإعدام أصدرته السلطة الفرنسية، وحطَّ به الترحال في دمشق؛ ليتابع فيها جهاده الكبير.

بعد رحيله إلى القاهرة لاجئاً سياسياً عام ١٩٢٠، بدأ هناك بالعمل السياسي إلى جانب الدعوة إلى الإسلام، وكانت داره «سفارة» تونس في القاهرة، يؤمها الأحرار والمناضلون من أبناء المغرب، وأسس «رابطة تعاون جاليات أفريقيا الشمالية»، فعقدت المؤتمرات، وشرحت قضايا المغرب العربي للعالمين العربي والإسلامي. وأنشأ «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية» التي قامت بدور هام وفعال في توحيد نضال أبناء المغرب العربي ـ تونس والجزائر والمغرب ـ، وكانت إحدى الطعنات التي مزقت صدر الاستعمار الفرنسي.

والحديث عن الكفاح السياسي للعلامة محمد الخضر حسين لا تسعه هذه المقدمة، وإنما نتركه لكتاب يضم أمثولة عالم مجاهد، له في ميادين الدين جولات، وفي ميادين الدولة صولات[1].

والحنين إلى تونس نجده في شعر الإمام، وهو على كثرته ـ فإننا نكتفي ـ بأبيات نوردها من ديوانه «خواطر الحياة»: وتحت عنوان «أبناء تونس» قال: عندما زاره أحد الأدباء القادمين من تونس إلى القاهرة:

أمحدِّثي رُبيّتَ في الوطن الذي رُبيّتُ تحتَ سمائه وبلغتُ رشدا
وجنيتَ زهْرَ ثقافةٍ من روضةٍ كنتُ اجتنيتُ بنَفسجاً منها ووردا

---

(١) انظر كتابنا: «جبهة الدفاع عن إفريقية الشمالية ـ صفحات من جهاد الإمام محمد الخضر حسين».

هـاتِ الحـديثَ فـإنني أصبو إلـى   أنباء تونسَ من صميمِ القلـب جِـدّا

والروضة في البيت الثاني هي جامع الزيتونة.

وكان أمير شعراء تونس الشاذلي خازندار قد بعث إلى المؤلف قصيدة مطلعها:

يزجي القوافيَ بين الأنجـم الزُّهْـرِ   تحنانُ تونسنا الخضراء (للخِضْر)

فأجابه المؤلف بقصيدة نقتطف منها الأبيات التالية:

دَرَيتَ حقـاً ومـا أدراكَ أنّـيَ مـن   حرٍّ اشتياقي إلى الخضراء في ضَجَرِ

من لي بأن أردَ الأرض التي صدرتْ   منها وأفتح فـي أرجائهـا بـصري

هناكَ ما شئتَ من علمٍ ومن أدبٍ   ومن حدائقَ تـؤتي أطيـب الثمـر

ومن قصيدة أجاب بها على أبيات بعث بها إليه صديقه الحميم العلامة محمد الطاهر بن عاشور يذكر فيها تونس:

فـأين ليالينـا وأسـمارها التـي   تُبَـلُّ بهـا عنـد الظِّمـاءِ كبـودُ

ليـالٍ قـضيناها بتـونسَ ليتهـا   تعـودُ وجيشُ الغاصبينَ طريـدُ

ومن قصيدة راسل بها الأديب التونسي محمد المأمون النيفر رداً على أبيات بعث بها إلى الإمام:

ذكرتُ ربى المرسى الأنيقة والـصَّبا   تـذيعُ شـذا أزهارهـا البهجـاتِ

وسـامرَ آدابٍ حـسانٍ كأنّـهُ   مراتـعُ مـا بالقـاعِ مـن ظَبيـاتِ

وروضةَ علمٍ كنتُ أجني ثمارَهـا   وأرشِفُ منهـا أعـذَبَ اللَّهجـاتِ

ومن قصيدة في محاورة شعرية مع صديقه الشيخ علي النيفر قال:

طلعتَ علينا واشتياقي لتونسٍ يقلب جمراً بين جنبيَّ واقِدا

وفي حب الوطن ينشد:

وطني علَّمتني الحبَّ الذي يدعُ القلبَ لدى البينِ عليلا
لا تلمني إن نأى بي قدرٌ وغدا الشرقُ من الغربِ بديلا
عزمةٌ قد أبرمتها همةٌ وجدَتْ للمجدِ في الظَّعنِ سبيلا
أنا لا أنسى على طولِ النَّوى وطناً طاب مبيتاً ومقيلا
في يميني قلمٌ لا ينثني عن كفاح ويرى الصَّبرَ جميلا

وللإمام قصيدة (تحية الوطن) قالها متشوقاً إلى تونس ومن فارقهم بها من الأصدقاء:

حيّا ربى تونس ذات الزهور عهد السُّرور
وافترَّ في طلعة تلك القصور أنس البدور
يا نسمة ماست كشارب راح قبل الصباح
هُبي وهاتي نفح أنس قَراح يشفي الجراح

هذا الحب الصادق لبلد رأى النور في رحابه، وتلقى العلوم في معهده العظيم جامع الزيتونة، وفي ميادينه سطر الصفحات الأولى من كفاحه الإسلامي المشهود له. هذا الحب كان له أثره الكبير في توجيه الإمام مجلة «الهداية الإسلامية» التي أصدرها في القاهرة في ثلاث وعشرين سنة إلى التعريف بتونس ورجالها وثقافتها[1]، وفتح صفحاتها أمام كبار العلماء والكتاب

---

(١) انظر كتابنا: «روائع مجلة «الهداية الإسلامية» ـ تونس التاريخ والثقافة» خصصناه بالمواضيع والأنباء التي نشرتها المجلة عن تونس.

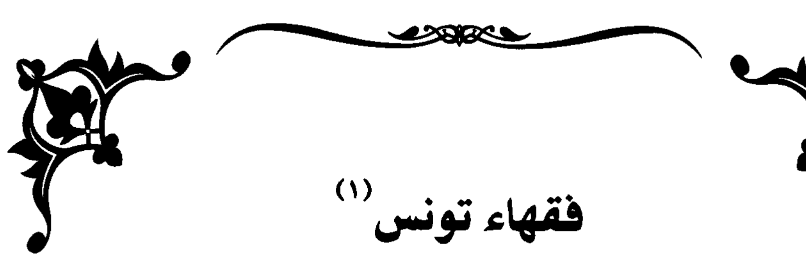
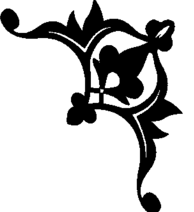
التونسيين؛ أمثال: الإمام محمد الطاهر بن عاشور، والعالم محمد البشير النيفر، وغيرهما.

وقلّما نجد جزءاً من المجلة لا يضم اهتماماً بتونس، وأثراً لها.

والحمد لله رب العالمين

علي الرّضا الحسيني



فقهاء تونس[1]

ألقيت نظرة على تاريخ الفقه في تونس، واستخلصت منه هذا الحديث:

وإذا تحدثت عن فقهاء تونس، فلا أتحدث عمَّن يحفظ أقوال أهل العلم ويلقيها في الدرس، أو يجمعها في كتاب على نحو ما حفظها، وإنما أتحدث عمَّن درس أحكام الشريعة، وعرف وجه ارتباطها بأصولها، وإذا تجددت حادثة، استطاع أن يرجع إلى دلائل الشريعة، ويستنبط لها حكماً ينطبق عليها.

أخذ الفقه الإسلامي يدخل البلاد التونسية منذ ابتداء فتحها في عهد معاوية بن أبي سفيان؛ فقد توارد عليها أيام الفتح جماعات من الصحابة والتابعين والمتفقهين في الدين؛ مثل: عبدالله بن الزبير، وعقبة بن نافع، وينبئنا التاريخ: أن الفقه كان في عهد عمر بن عبد العزيز يتلقى في تونس على طريق الدراسة والتعليم، فإن هذا الخليفة ندب عشرة من أعيان التابعين، وبعث بهم إلى أفريقية ليعلموا البربر واجبات الدين وأحكامه، ومن بين هؤلاء الأعيان: عبد الرحمن بن رافع التنوخي، وهو أول من ولي القضاء بالقيروان، وكانت مدينة القيروان يومئذ مقر الإمارة، فأصبح جامعها الذي أسسه الفاتحون

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول والثاني من المجلد السادس عشر الصادران في رجب وشعبان ١٣٦٢.

الأولون معهداً للعلوم الإسلامية، ومصدراً للفتاوى والأحكام.

وأخذ أهل تونس يرحلون إلى الشرق لتلقي علوم الشريعة، ومن هؤلاء الراحلين: عبد الرحمن بن زياد المعافري، فتلقى العلم عن جماعة من التابعين، وكان من رفقائه في طلب العلم الخليفة أبو جعفر المنصور، ثم عاد عبد الرحمن إلى القيروان بعلم غزير.

ورحل بعد هذه الطبقة طائفة أخذوا عن الإمام مالك وغيره من الأئمة، ثم عادوا إلى تونس بعلم واسع؛ مثل: علي بن زياد، وهو أول من دخل تونس بموطأ مالك بن أنس، ومثل أسد بن الفرات الذي تلقى العلم عن مالك بالمدينة، ثم عن محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة بالعراق، وعاد إلى تونس وهو على علم بأصول مذهبي مالك وأبي حنيفة وفروعهما، وهذا الفقيه هو البطل الذي فتح صقلية في عهد الأغالبة، فجمع بين القضاء العادل، وقيادة الجيوش المظفرة.

وما أتى على تونس مئتا سنة من الهجرة النبوية إلا وقد ظهر فيها أعلام بلغوا الذروة في الفقه، وأحكموا صناعة القضاء

وظهر بعد هؤلاء الذين لاقوا مالكاً طبقة أشهرهم: الإمام عبد السلام ابن سعيد المعروف بسحنون، نشأ سحنون وشبّ في القيروان، ثم رحل إلى مصر، وتلقى فقهاً كثيراً عن ابن القاسم، وألف كتاب «المدونَّة»، وعنه انتشر مذهب مالك في تونس، بل في المغرب كله، وتخرج بين يديه رجال خدموا الفقه بالاستنباط والتدريس والتأليف.

هذا هو الأساس الذي ارتفع عليه صرح الفقه في تونس، واستمر جامع القيروان يخرج للناس أكابر الفقهاء الذين بلغوا درجة الاستنباط أو الترجيح

بين الآراء، وألفوا فأحكموا صناعة التأليف، كما أخرج في المئة الثالثة محمد ابن إبراهيم بن عبدوسي، والقاضي موسى بن عمران المعروف بالقطّان، وأخرج في المئة الرابعة عبدالله بن أبي زيد صاحب كتاب «النوادر»، وأخرج في المئة الخامسة عبد الحميد المعروف بابن الصائغ، وعلي بن محمد المعروف باللخمي، وعبد الخالق السبوري.

وبين أيدي هؤلاء الأساتذة تخرج الإمام محمد بن علي المعروف بالمازري، فازدهرت بعلومه المئة السادسة.

وفي أواخر المئة السادسة انتقل كرسي الإمارة إلى مدينة تونس؛ حيث اختارها عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه مقراً للإمارة، وأصبحت الحركة العلمية تنمو في هذه المدينة إلى أن صار جامع الزيتونة محطَّ رحال طلاب العلم بدل جامع القيروان.

وظهر في المئة السابعة علماء أجلاء؛ مثل: أبي أحمد المعروف بابن زيتون، وهو أول من أظهر بعد عودته من الشرق مؤلفات فخر الدين الرازي في الأصول، ودرسها بتحقيق.

وظهر في المئة الثامنة أعلام يشار إليهم بالبنان؛ مثل: محمد بن عبد السلام الهواري، ومحمد بن هارون الكناني، وتحدث أبو عبدالله المقري قاضي فاس عن زيارته لتونس في ذلك العهد، وذكر لقاءه لهذين الإمامين، ثم قال: «ولقيت غير واحد من علمائها».

ومن تلاميذ محمد بن عبد السلام: أبو عبدالله محمد بن عرفة، وأبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، وتخرج في دروس ابن عرفة علماء ازدانت المئة التاسعة بدراساتهم وآرائهم ومؤلفاتهم؛ مثل: أبي عبدالله

الأبي، وأبي القاسم البرزلي.

وجرت في تونس بعد هذا فتن وحروب عطلت سير العلم، وأتلفت كثيراً من خزائن الكتب حتى كادت المئة العاشرة تنقضي دون أن يكون هنالك رجال لهم في الفقه أقدام راسخة، وأنظار ثاقبة.

وفي آخر المئة العاشرة التحقت تونس بولايات الدولة العثمانية. ويقول المؤرخون: أول من كسا القضاء فيها عظمة وكرامة بعد الاستيلاء العثماني: أبو الحسن النفاتي المتوفى سنة ١٠٤٩.

وكان القضاة بعد هذا يبعثون من البلاد التركية، وهم متفقهون على مذهب أبي حنيفة، وورد غيرهم من العلماء، فشدوا أزر النهضة العلمية، فسارت في قوة ونشاط، وأخذت تونس تخرج كبار الفقهاء؛ مثل: الشيخ محمد زيتونة، والشيخ محمد سعادة.

ومن هنا رأى الأمير محمد حسين باي أن البلاد في غنى عن القضاة الذين يبعثون من الآستانة، وعين من الوطنيين قاضياً مالكياً، وقاضياً حنفياً، وكان هذا الأمير يصطفي لمجلسه صفوة العلماء، فأقام للعلم سوقاً نافقة، وما أقبلت المئة الثالثة عشرة حتى كانت تونس عامرة بأجلة الفقهاء. وجاء الأمير أحمد باي، ونظم التعليم بجامع الزيتونة سنة ١٢٥٦هـ، فازدادت النهضة العلمية قوة على قوتها، واشتهرت بيوت بإقبال أبنائها على العلم، وتوليهم للمناصب الشرعية؛ كآل النيفر، وآل عاشور بين فقهاء المالكية، وآل بيرم، وآل أبي الخوجة بين الفقهاء الحنفية.

كان نظام التعليم بالمعهد الزيتوني من أسباب تنافس أصحاب المذهبين: المالكي، والحنفي في ميدان العلم، ويضاف إلى هذا: أن في العاصمة محكمة

مالكية، ومحكمة حنفية، وكل منهما يتألف من قاض، ورئيس للفتوى، وثلاثة أو أربعة من المفتين، أما القضاة والمفتون في سائر البلاد، فيعينون من الفقهاء المالكية، نظراً إلى أن المذهب المالكي هو الذي يأخذ به معظم الوطنيين.

وقد أخرج جامع الزيتونة بعد هذا النظام فقهاء أجلة، يعتزون بعلمهم، ويزهدون في المناصب، إلا أن تحيط بها العزة والكرامة، وأدركت من هؤلاء الفقهاء أساتذة بلغوا غاية بعيدة في سعة العلم، وتحقيق البحث؛ مثل: الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ أحمد بن الخوجة، والشيخ محمد النجار، ومن نظر في فتاوى هؤلاء الأساتذة، أو رسائلهم التي حرروا بها بعض المسائل العويصة، رآهم كيف يرجعون إلى الأصول والقواعد ومراعاة المصالح، ولا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتأوَّلوها بالنقد والمناقشة.

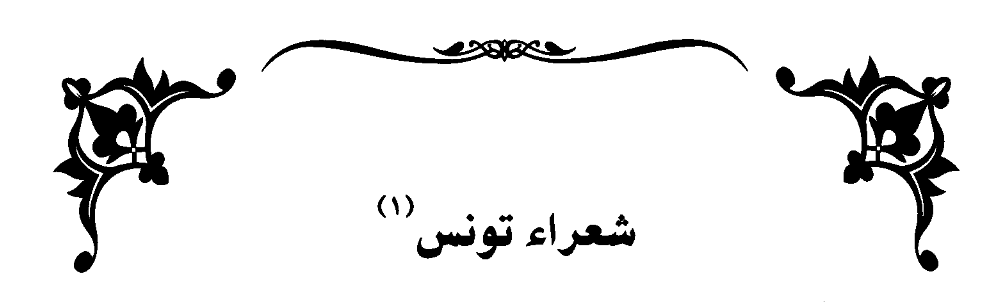
ويدلنا التاريخ القريب أن بعض رجال الدولة وجدوا عندما اتجهوا إلى إصلاح الحالة السياسية أو العلمية أو الاجتماعية فقهاء يدركون مقتضيات العصر، ويعرفون كيف تسعها أصول الشريعة بحق، فكانوا يعقدون منهم بعض لجانهم، ويستنيرون بآرائهم؛ مثل أساتذتنا: الشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم أبي حاجب، والشيخ مصطفى رضوان.

وما زال الرسوخ في الفقه، وربط الأحكام بأصولها، من عناية الأساتذة في جامع الزيتونة، يشهد بهذا ما نقرؤه من محاضراتهم وفتاواهم ومقالاتهم التي تنشر في الصحف التونسية أو المصرية.

وإذا كان لهذا الحديث خلاصة، فهي: أن كثيراً من فقهاء تونس كانوا يدرسون الفقه بأنظار مستقلة، وآراء تستضيء بالأدلة، وكانوا يتنافسون في هذه الطريقة، ويتفاوتون فيها على قدر تفاضلهم في العبقرية وسموِّ الهمة.

فإذا ما تصدى مؤرخ للحديث عن الفقهاء الذين برعوا في فهم حكمة التشريع، وشملوا الحقوق برعاية وصيانة، فإن كثيراً من فقهاء تونس أهل لأن يذكروا في مقدمة أولئك الفقهاء.





شعراء تونس[1]

دخل أدب اللغة العربية البلاد التونسية مع الفتح الإسلامي؛ فقد كان في الفاتحين الأولين من يجيد الشعر؛ مثل: أبي الخطار الحسام بن ضرار، والحسن بن حرب الكندي. ونشأ في أوائل المئة الثانية من الهجرة أدباء يقولون الشعر الجيد؛ مثل: عبد الرحمن بن زياد، وهو أول مولود ولد للعرب في أفريقية، ومما قاله في بغداد وقد عزم على العود إلى القيروان:

ذكرتُ القيروانَ فهاج شوقي ... وأين القيروانُ من العراقِ

مسيرة أشهرٍ للعير نصاً ... وللخيل المضَّمرة العتاق

فبلِّغ أنعماً وبني أبيه ... ومن يرجو لنا وله التلاقي

بأنّ الله قد خلى سبيلي ... وجدَّ بنا المسير إلى فراق

وفي ذلك العهد ولِّي القيروان يزيد بن حاتم، وقصده الشعراء من المشرق؛ مثل: مروان بن أبي حفصة، وربيعة بن ثابت الذي مدحه بذلك البيت السائر:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم واليزيد بن حاتم

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الخامس والسادس من المجلد الخامس عشر الصادران في ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦١.

ويزيد نفسه كان شاعراً، وهو القائل:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ... لكن يمر عليها وهو منطلق

وما من شك في أن ولاية أمير سخي يقدر الأدب قدره، من أقوى أسباب نهوض أدب اللغة، ولا سيما أميراً يفد إليه الشعراء البلغاء من آفاق شتى.

ويتراءى لنا في المئة الثالثة أدباء يجيدون الشعر؛ مثل: أحمد بن سليمان الربعي، بل نجد فيها أديبات ينظمن الشعر الجيد؛ مثل: ابنة الحسن بن غلبون، ومن شعرها الذي رثت به أخاها غلبون:

يا شقيقاً ليس في وجدي به ... علة تمنعني من أن أجنّ

وإذا تبلى وجوه في الثرى ... فكذا يبلى عليهن الحزن

ومن بين أولئك الأدباء علماء تعلقوا بعد العلم بصناعة الشعر؛ مثل: عيسى بن مسكين؛ فقد كان معدوداً في زمرة الفقهاء الأدباء، ومن شعره قوله آسفاً على عهد الشباب:

لعمري يا شبابي لو وجدتك ... بما ملكت يميني لارتجعتك

ولو جعلت لي الدنيا ثواباً ... بما فيها عليك لما وهبتك

واشتملت المئة الرابعة على أدباء يقولون الشعر الحسن؛ مثل: زياد ابن يونس اليحصبي، وعلي بن العباس الأيادي، ومن شعره قوله في وصف سجع الحمائم عند فلق الصبح:

قد ولد الصبح فمات الدجى ... صاحت فلم ندر غِنا أم نواح

وابن عبدون السوسي، ومن شعره قوله متشوقاً إلى القيروان:

يا قصر طارق همي فيك مقـصور ... شوقي طليق وخطوي عنك مأسـور
إن نـام جـارك إنـي سـاهر أبـداً ... أبكي عليك وباكي العـين معـذور
عندي من الوجد ما لوفاض من كبدي ... إليك لاحترقت من حولك الـدور

وتناول الشعر في ذلك العهد بعض السيدات المهذبات؛ مثل: خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري. وفي هذا العهد ورد القيران من الأندلس الشاعر المعروف أبو القاسم بن هانئ ، واستوطنها، وشأن البلاد التي يستوطنها شاعر عبقري كابن هانئ أن تزداد فيها نهضة الأدب قوة وصفاء.

أما المئة الخامسة، فقد ازدهر فيها الأدب بتونس، وأصبح بمنزلة هي منزلته في أرقى البلاد، وأبهج العصور، ويصح لي أن أقول: إن هذا العصر واسـطة عقد العصـور الأدبية من جهة الإبـداع في الخيال، وإتقان صناعـة النظم.

ومن مهيئات هذه النهضة الفائقة: أن المعز بن باديس الذي تولى الملك بالقيروان في طالعة المئة الخامسة كان أديباً بارعاً، ومعنياً بإكرام الشعراء، حتى اجتمع حول قصره ـ فيما يقصه التاريخ ـ نحو مئة شاعر يرأسهم أستاذه ووزيره علي بن أبي الرجال.

فلا عجب أن يظهر في ذلك العصر أمثال: الحسن بن رشيق، ومحمد ابن شـرف، وإبراهيم الحصري صاحب كتاب «زهر الآداب»، وابن خالته علي الحصري صاحب قصيدة:

ياليـــل الـــصبُّ متـــى غـــده ... أقيـــام الـــساعة موعـــده

وظهر في المئة السادسة أدباء لهم شعر رائق؛ مثل: عبد العزيز بن أبي الصلت، وعلي بن فضال، ومن شعره الأبيات السائرة:

وإخـــوان حـــسبتهم دروعـــاً فكانوهـــا ولكـــن للأعـــادي

وخلـــتهم ســـهاماً صـــائبات فكانوهـــا ولكـــن فـــي فـــؤادي

وقـالوا قـد صـفت منـا قلـوب نعـم صـدقوا ولكـن مـن ودادي

وإذا ألقينا نظرة على المئة السابعة، وجدنا للأدب نهضة ذات آثار مليحة، ومن رجال هذه النهضة: عثمان بن عتيق المعروف بابن عريبة.

ومن أسـباب نهوض الأدب في هذا العهد: أن أميـر تونـس أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد، وابنه المستنصر بالله، عنيا بنشر العلم، والإقبال على الشعراء، وكان أبو زكريا هذا معدوداً من الشعراء، وفي عهد ولايته قدم من الأندلس محمد المعروف بابن الأبار، وأنشده قصيدته في الاستنهاض لإنقاد الأندلس، وطالعها:

أدرك بخيلـك خيـل الله أندلـسا إن الـسبيل إلـى منجاتهـا درسـا

وفي هذا العهد ورد تونس من الأندلس أيضاً الأديب الكبير علي بن سعيد متمم كتاب «المغرب»، ومدح السلطان بقصائد بليغة.

وفي عهد ولاية ابنه المستنصر، وفد حازم بن محمد القرطاجني من الأندلس، ومدح المستنصر بمقصورته القصيدة الطائية التي يقول في طالعها:

أمن بارق أودى بجنح الدجى سقطا تذكرت من حل الأجارع والسقطا

ولما وجد هؤلاء الأدباء الثلاثة سوق الأدب في تونس نافقة، اتخذوها وطناً، وكان لهم في رقي الأدب أثر كبير.

وكانت المئة الثامنة عامرة بكثير من الأدباء، ومن أعيانهم: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى بن خلدون، وشعر ابن خلدون معروف،

ومن شعر يحيى القصيدة التي يقول في مطلعها:

ما على الصب في الهوى من جناح أن يُرى حلف عَبرة وافتضاح

أما المئة التاسعة والعاشرة، فقد انقطعت عنا أخبار أدبائها؛ لما كان يحدث في تونس من الحروب والفتن السياسية، وإنما وصل الباحثون في تاريخ الأدبي التونسي إلى طائفة قليلة جداً؛ مثل: أحمد بن عبد الرحمن بن الخلوف، ومثل: أبي الفتح محمد بن عبد السلام، ولهذا العالم الأديب قصيدة يتحسر فيها على ما حل بتونس لذلك العهد من حوادث اضطربت لها الحالة العلمية والسياسية.

ورجع الأدب في المئة الحادية عشرة إلى الظهور، وأخذ التاريخ يحدثنا عن رجال عاشوا في ذلك العهد، وكانت لهم في الأدب أقدام راسخة؛ مثل: الشيخ محمد فتاتة. واتصل أدب هؤلاء بأدب المئة الثانية عشرة، فكان حظ هذه المئة فوق حظ المئة السالفة. ومن أعيان أدبائها: الشيخ حمودة بن عبد العزيز، والشاعران البارعان: أبو عبدالله محمد الورغي، وأبو الحسن علي الغراب، ولكل منهما ديوان معروف عند التونسيين.

وكان لنهوض الأدب في المئة الثانية عشرة أثر كبير في رواج سوقه في المئة الثالثة عشرة، ومن أدباء ذلك العهد: الشيخ محمد الخضار، والشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ بيرم الرابع، والشيخ محمود قبادو، ولهؤلاء دواوين من الشعر، والذي طبع منها: ديوان الشيخ محمود قبادو، وهو أول من أخذ ينحو بالشعر نحو ما يقتضيه حال العصر، وأذكر من قصيدة له يحث فيها الأمة على مسايرة الأمم المجدة في إعداد وسائل القوة والعظمة:

لعمري ليس الميت من أودع الثرى ولكن مطيق للغنى بان عدمه

ومن برعوا في النثر الفني: الأستاذ أحمد أبو الضياف، فقد تولى رياسة الديوان في عهد الأمير أحمد باي، وأخذ ينسج في مراسلاته على مثال لسان الدين بن الخطيب، فسار النثر الجيد بجانب الشعر، وما أتى هذا العصر - وهو القرن الرابع عشر - حتى تهيأت في تونس نهضة أدبية محكمة الأساس، فلم تتبطأ أن صارت تنافس نهضة الأدب في البلاد الشرقية.





الحالة العلمية بجامع الزيتونة(١)

في قارة أفريقية ثلاثة معاهد إسلامية: الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس. أما الأزهر، فله الشهرة في الشرق والغرب؛ لأن دائرة التعليم فيه أوسع، وطلاب العلم يؤمونه من كل ناحية، والمكاتب ـ عامة أو خاصة ـ لا تكاد تخلو من مؤلفات علمائه.

أما المعهدان الآخران، فلعل موقعهما الجغرافي، وحال محيطهما الاقتصادي وقفا منهما دون أن يحوزا كما حاز الأزهر سمعة لم تدع داراً إلا غشيتها، ولا أذناً إلا ولجتها، فما كنت لأعجب إذا لقيت رجالاً من أهل العلم لا يعرفون من شأن جامع الزيتونة كثيراً أو قليلاً.

ولما كانت جمعية الهداية الإسلامية قد أخذت على نفسها أن تكون وسيلة تعارف بين جماعات المسلمين عامة، ورجال العلم خاصة، رأيت أن ألقي كلمة في الحالة العلمية بجامع الزيتونة، ولعلّ الجمعية توفّق إلى إلقاء محاضرة في الحالة العلمية بجامع القرويين، وبهذا العمل تكون الصلة

---

(١) محاضرة الإمام في نادي جمعية «الهداية الإسلامية» بالقاهرة، ونشرت في الجزء الرابع من المجلد الثالث من مجلة «الهداية الإسلامية» لعام ١٣٤٩هـ. مع ملاحظة التبديل الطارئ على النظام والمنهج وعدد المدرسين والطلاب في جامع الزيتونة حتى الآن.

بين المعاهد الثلاثة كما تقتضي مصلحة الأمة على متانة وصفاء.

وقد رأيت أن أمر بنظرة قصيرة على حال العلم منذ نشأته في تلك البلاد إلى أن دخل جامع الزيتونة في هيئته النظامية؛ لنرى كيف كان العلم هنالك ضارباً بشعاعه منذ أعصر قديمة، وإن اختلفت حالته قوة وضعفاً، وظهوراً وخمولاً.

*** نشأة العلم في البلاد التونسية:**

كان الذين يعمرون البلاد التونسية والجزائرية والمراكشية صنف البربر، ولكن بعد الفتح الإسلامي هاجر إليها خلق كثير من العرب الخلص، فانتشرت هنالك اللغة العربية، وأصبح سكان تلك البلاد بعد هذا الاختلاط أقواماً مستعربين، إلا قبائل متفرقة، معظمها بالمغرب الأقصى، وبعضها في الجزائر، وقليل منها في تونس.

وإذا نحن رجعنا إلى التاريخ؛ لنعلم كيف أخذت العلوم الإسلامية تنتشر في تلك البلاد، نجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ ندب عشرة فقهاء من أعيان التابعين، وبعثهم إلى أفريقية؛ ليعلموا البربر واجبات الدين وأحكامه.

وكان رئيس هؤلاء المبعوثين: أبا عبد الرحمن عبدالله الحبلي، ومن بينهم: أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي، وهو أول من ولي القضاء بالقيروان.

ومن ذلك العهد ابتدأ أهل تونس يرحلون إلى الشرق لتلقّي ما فيه من علوم، ومن هؤلاء الراحلين: عبد الرحمن بن زياد المعافري: رجل قروي من جماعة من التابعين، وكان قد صحب أبا جعفر المنصور في طلب العلم، وعاد إلى القيروان بعلم غزير، وأدب جم، حتى تقلد أبو جعفر المنصور

الخلافة، فولاه قضاء القيروان، وكانت مدينة القيروان عاصمة الإمارة، ومحط رحال طلاب العلم حتى أواخر المئة الخامسة.

ورحل في طلب العلم بعد طبقة عبد الرحمن بن زياد طائفة لقوا مالك بن أنس وغيره من الأئمة، ثم عادوا بما جمعوا من علم؛ مثل: علي بن زياد، وعبدالله بن غانم، وأسد بن الفرات فاتح صقلية.

وكانت المئة الثالثة مستنيرة بأمثال سحنون ومن أخذوا عنه؛ كأبي سعيد البرادعي، وحماس بن مروان الهمذاني.

وأذكر أن يحيى بن عمر رحل إلى العراق، ثم جاء القيروان، وحضر مجلساً كان يعقده حماس هذا للمذاكرة في الفقه، وبعد أن انصرف من المجلس، قال: ما تركت في بغداد من يتكلم في الفقه بمثل ما سمعت اليوم.

ومما قال أبو القاسم الفزاري أحد أدباء القيروان لذلك العهد:

فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخور
بلاد حشوها علم وحلم ... وإسلام ومعروف وخير
عراق الشام بغداد وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير
بلاد خطها أصحاب بدر ... وتلك اختط ساحتها أمير

وفي ذلك العهد ظهر في تونس الطبيب المعروف بابن الجزار صاحب المؤلفات التي عني بها الأوروبيون، ونلقوها من العربية إلى اللاتينية.

* في القرن الرابع:

ومن أعلام المئة الرابعة: أبو العباس عبدالله بن إسحاق المعروف بالإبياني، وكان من حفاظ مذهب مالك، ويميل إلى مذهب الشافعي، ورد مصر، فقال في حقه ابن شعبان: ما عدا النيل منذ خمسين سنة أعلم منه.

ومن أعلام هذا القرن أبو محمد عبدالله بن أبي زيد صاحب المؤلفات التي من جملتها كتاب «النوادر»، والزيادات على «المدونة»، وقد أخرجه في نحو مئة جزء.

* في القرن الخامس:

ومن أعلام المائة الخامسة عبد الحميد بن محمد الهروي المعروف بابن الصائغ، وأبو الحسن علي بن محمد المعروف باللخمي صاحب كتاب «التبصرة»، وله آراء في الفقه، وإليه يشير بعض الأدباء بقوله:

لقد مزقت قلبي سهام لحاظها كما مزق اللخمي مذهب مالك

وفي هذا العهد ظهر الأدب في تونس ظهوره في العراق والشام والأندلس، فظهر بالقيروان: الحسن بن رشيق صاحب كتاب «العمدة»، وابن شرف صاحب الرسائل التي من جملتها «أعلام الكلام»، وأبو إسحاق إبراهيم الحصري صاحب كتاب «زهر الآداب»، وابن خالته أبو الحسن علي الحصري صاحب القصيدة التي حاكاها كثير من الأدباء في القديم والحديث:

ياليلُ الصبُّ متى غده أقيام الساعة موعده

* في القرن السادس:

ومن أعلام المئة السادسة: أبو عبدالله محمد بن علي المعروف بالمازري، وكان معدوداً فيمن بلغوا رتبة الاجتهاد، ومن مؤلفاته «شرح كتاب البرهان» لإمام الحرمين، و«شرح التلقين» للقاضي عبد الوهاب.

* في القرن السابع:

ومن أعلام المئة السابعة: أبو أحمد بن أبي بكر المعروف بابن زيتون،

رحل إلى الشرق، وأخذ عن عز الدين بن عبد السلام، وعاد إلى تونس، وكان بها قاضي القضاة، وهو أول من أظهر ودرَّس في تونس مؤلفات فخر الدين الخطيب الأصولية.

وفي هذا العهد أنشأ الأمير أبو زكريا يحيى داراً للكتب جمع فيها نحو ستة وثلاثين ألف مجلد.

وورد تونس في هذا القرن حامل لواء العربية بالأندلس علي بن موسى المعروف بابن عصفور، وأقام حتى توفي، وقبره بمكان قريب من جامع الزيتونة.

* **في القرن الثامن:**

ومن أعلام المئة الثامنة محمد بن عبد السلام، وهو معدود فيمن بلغوا رتبة الاجتهاد، ومن مؤلفاته «شرح جامع الأمهات لابن الحاجب».

ومن أعلام هذا القرن: أبو عبدالله محمد بن عرفة المؤلِّف في الفقه والتفسير والمنطق، وأصول الفقه، وأصول الدين، ومر في رحلته إلى الحج بالقاهرة، وأخذ عنه البدر الدماميني، واجتمع بالملك الظاهر، فأكرمه، وأوصى أمير الحج بخدمته.

ومن أعلامها: المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون المتوفى في القاهرة سنة ٨٠٧.

* **في القرن التاسع:**

ومن أعلام المئة التاسعة: محمد بن عمر الأبي شارح «المدونة»، و«صحيح الإمام مسلم»، وأبو القاسم البرزلي صاحب «الفتاوى»، ويحكى: أن الشيخ ابن عرفه ليم على كثرة الاجتهاد، وإتعاب نفسه في النظر، فقال:

وكيف أنام وأنا بين أسدين: الأبي بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله.

وفي هذا القرن أنشأ الأمير أبو فارس عبد العزيز خزانة كتب في الجانب الشمالي من جامع الزيتونة، ووقع عليها آلافاً من المجلدات.

*** في القرن العاشر:**

وكان الأمير في مبتدأ القرن العاشر أبا عبدالله محمد الحفصي، وكان له عناية بالعلم، ومن آثاره: إنشاء مكتبة لجامع الزيتونة، وهي التي تسمى الآن: «المكتبة العبدلية».

وفي سنة ٧٠ من هذا القرن بليت تونس بحلول عساكر الإسبان، فعاثوا في المكاتب، وأطلقوا أيديهم في إتلافها حتى صارت نفائس الكتب ملقاة في الطرق تدوسها خيلهم بأرجلها، ولم يبق في مكتبة جامع الزيتونة ـ فيما يقال ـ إلا بضع نسخ من «صحيح الإمام البخاري». ويقول بعض الشيوخ معتذراً عن قلة ما يوجد من مؤلفات التونسيين: إن هذه الكارثة الإسبانية قد أتلفت وأضاعت كثيراً مما ألفوا.

ولكن البلاد لم تلبث بيد الإسبان حتى جاء الأتراك وطردوهم منها سنة ٩٨١، وصارت تونس من الأقطار المتعلقة بالدولة العثمانية، ويظهر من مطالعة التاريخ: أن سوق العلم بتونس كانت في القرن العاشر خاملة؛ إذ لم نجد فيها ما وجدنا في القرون قبلها أو بعدها من الأعلام الذين يدل وجودهم في القطر على أن هناك علوماً ساطعة، وأنظاراً واسعة، وأفهاماً راسخة.

*** في القرن الحادي عشر:**

بمناسبة اتصال تونس بالدولة العثمانية وردها في أوائل القرن الحادي

عشر بعض علماء الروم، فأخذت بهم الحركة العلمية نشاطاً، ومن هؤلاء الواردين: أستاذ يقال له: «منلاّ أحمد»، كان بارعاً في الفقه والأصول والتفسير والنحو والبيان والمنطق، فتخرج في درسه جماعة من أعلام القرن الحادي عشر؛ مثل الشيخ: محمد الغماد، والشيخ أبو يحيى الرصّاع.

وينبئكم برسوخ منلا أحمد هذا في الفهم: أن بعض الطلاب أراد أن يسرد عليه تركيباً من كتاب، فقال له: إني لست بقصاص، فعبر لي من شدقك بعبارة تنبئ عن مراد المؤلف.

*** في القرن الثاني عشر:**

تدلنا آثار كثيرة على أن الحياة العلمية في القرن الثاني عشر قد أخذت في نشاط؛ فإنا نرى لكثير من أمراء تونس في ذلك العهد اعتناء بإحياء العلم، وتهيئة وسائله.

نرى محمد بن مراد باي المتوفى سنة ١١٠٨ بنى مدارس في نواح مختلفة من المملكة؛ كالقيروان، والكاف، وقابس، وباجة، والجريد، ونرى الأمير حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية القائمة حتى الآن قد أنشأ مدارس بالحاضرة، والقيروان، وسوسة، وصفاقس، ونفطة.

ونرى علي باشا قد أنشأ مدارس، ووقف في كل مدرسة خزانة من الكتب، وأرسل الشيخ حسين البارودي مفتي دولته إلى الآستانة ليشتري له ما يصل إلى يده من الكتب القيمة.

ونقرأ في تاريخ حسين بن علي الثاني: أنه كان من الأدباء والشعراء، ومن شعره قصيدة ميمية شرحها الشيخ أبو عبدالله محمد الشافعي، وقصيدة قافية شرحها العلامة الشيخ محمد صالح الكواش.

ونقرأ في تاريخ علي باي بن حسين بن علي: أنه كان مشتركاً في العلوم، وكان يصطفي العلماء.

ويقص علينا التاريخ: أن طائفة من العلماء كانوا قد رحلوا إلى تلقي العلم بالأزهر؛ مثل: علي بن موسى الأندلسي، ورد الأزهر، فأخذ عن الشيخ الأجهوري، وعبد الباقي الزرقاني، ومحمد الخرشي، وعاد إلى تونس بعلم كثير.

ومن أعلام هذه المئة الشيخ محمد زيتونة، والشيخ محمد الخضراوي، والشيخ حموده فتاتة، ونجم الدين المعروف بابن سعيد صاحب «حواشي شرح الخيصي»، «للتهذيب وحواشي شرح الأشموني للخلاصة».

وفي ذلك القرن كان للأدب سوق نافقة، وظهر فيها الشاعران: علي الغراب الصفاقسي، ومحمد الورغي، بل نجد في أشعار أهل العلم جزالة وإحكام نسج.

وأذكر من شعر الشيخ ابن سعيد قوله يشكو حساده:

ومالي ذنب عندهم غير أنني ... إذا شئت قلت الشعر وهو رقيق

وإن خضت في بحر من العلم لجَّ بي ... تطاير دُرٌّ فوقه وعقيق

خليلي هل يجني على المرء مجده ... فإني بالمجد العريق حريق

وأذكر من شعر الشيخ حمودة بن عبد العزيز يتحدث عن الحرب:

فلا وأبي لا يبلغ المجد عاجز ... يعلل نفساً بالأماني الكواذبِ

ولكن فتى قد جرَّد السيف طالباً ... به من حقوق الحمد أسنى المطالبِ

يهاب الدنايا أن تدنس عرضَه ... وليس لأسباب المنايا بهائبِ

هي الحرب من يعلق بها يبلغ المنى وهل نال أقصى المجد غير المحاربِ

* نشأة جامع الزيتونة:

كانت القيروان منذ الفتح الإسلامي عاصمة للملكة التونسية، وكان جامعها الذي اختطه عقبة بن نافع ﷺ من أكبر المعاهد التي يؤمها طلاب العلم من نواح مختلفة، ولما استولى على القطر الفرنسي أصحاب المهدي بن تومرت: عبد المؤمن بن علي وحلفاؤه، اتخذوا مدينة تونس دار الإمارة، وبقيت العاصمة إلى هذا اليوم.

وبعد أن صارت مدينة تونس عاصمة البلاد، أصبحت مورد العلوم، ومحط رحال العلم، فأخذ جامع الزيتونة يغالب جامع القيروان، وأخذ اسمه يتردد أكثر مما كان يتردد على الألسنة والآذان.

ابتدأ بناء جامع الزيتونة الأمير حسان بن النعمان الغساني الداخل لإفريقية سنة ٧٩، ثم جاء الأمير عبدالله بن الحبحاب الداخل سنة ١١٤، وأتم بناءه سنة ١٤١، ولما تولى زيادة الله بن الأغلب الإمارة بالقيروان، أحدث به أبنية فخمة، وصار من أحسن الجوامع القائمة على أساطين من المرمر والرخام.

* جامع الزيتونة والنظام:

رأى أمير تونس المشير أحمد باشا أن تكون الدولة قائمة بنفسها، وأخذ ينظر في وسائل القوة والمنعة، وأول ما يعنى به طالب القوة: ترقية شأن التعليم، وإنبات طلاب العلم نباتاً حسناً، فكان من تدبير هذا الأمير: أن قصد إلى تنظيم التعليم بجامع الزيتونة، وأصدر في ذلك مرسوماً سنة ١٢٥٨، وتلي هذا المرسوم في يوم مشهود، ورسم في صحيفة محاطة بإطار، وعلق داخل باب من أبواب الجامع يقال له: «باب الشفاء».

واقتضى هذا المرسوم أن ينتخب للتدريس بجامع الزيتونة خمسة عشر عالماً من المالكية، ومثلهم من الحنفية، على أن يقرئ المدرس في كل يوم ـ ما عدا يومي الخميس والجمعة ـ درسين من أي فن أراد، وفي أي وقت تيسر له، وإذا فقد أحد هؤلاء المدرسين، انتخب نظّار الجامع بدله أعلم الموجودين في العصر، وإذا اشتبه عليهم الحال فيمن يستحق ولاية التدريس، عقدوا مسابقة بين من يرغبون في إحرازها بطريق المسابقة، ومن وقع عليه الاختيار، فصل في تعيينه المشايخ النظّار، وبعثوا قرارهم إلى حضرة سمو الباي يصدر مرسوماً في ولايته.

وفي عهد الأمير محمد الصادق باي، ووزيره المصلح خير الدين باشا صاحب كتاب «أقوم المسالك في أحوال الممالك»، دخل على نظام التعليم تبديل وتهذيب، ووضعت مناهج سارت به إلى الأمام مرحلة كبيرة، وكان هذا الوزير يتردد على الجامع، ويشهد حلقات الدروس بنفسه، فكان فيما يظهره رجال الدولة من العناية بهذا المعهد الإسلامي داعية إقبال وتنافس في ميدان العلوم.

وفي سنة ١٣١٠، وسنة ١٣١٢ دخل على هذا النظام شيء من التنقيح.

وفي سنة ١٣٢٩ عقدت الحكومة لجنة من كبار أهل العلم وبعض رجال الدولة؛ للنظر فيما تحتاج إليه مناهج التعليم من تهذيب وإصلاح، فصار التعليم بما قررته اللجنة أقرب إلى التعليم المحاط بالنظم المدرسية من كل جانب.

وكانت أقسام التعليم من ابتدائي وثانوي وعال، كلها في نفس جامع الزيتونة، وفي سنة ١٣٤٥ فصل التعليم الابتدائي عن الثانوي والعالي، فخصص

للابتدائي جامع فسيح يقال له «جامع سيدي يوسف»، وبقي القسمان الثانوي والعالي في جامع الزيتونة.

ونؤمل من ذوي الشأن هنالك أن ينشئوا في الجامعة الزيتونية قسماً للتخصص؛ حتى تسير تلك الجامعة بجانب الأزهر الشريف في المستقبل كما سارت بجانبه فيما سلف من الأيام.

وظهر في عهد النظام نبغاء في علوم الدين واللغة العربية؛ مثل: الشيخ معاوية الذي يذكره الشيخ الأنباني في تقاريره البيانية، فيناقشه تارة، ويسلم آراءه تارة أخرى.

وفي أوائل ذلك العهد أخذت تونس في حياة مدنية نامية، وصارت في مقدمة الشعوب التي تيقظت لما تحتاج إليسه من إصلاح. ومن شواهد هذا: قصائد المفتي المالكي الشيخ محمود قبادو المتوفى حوالي سنة ١٢٨٠، فإن قارئها يجد فيها تذكرة وتنبيهاً على جانب من طرق الإصلاح، ويحضرني من شعره قوله في إحدى القصائد:

أرى الملك مثل الفلك تحت رئيسه ... عويزاً إلى الأعوان فيما يؤمُّه

فذلك نوتيٌّ يعين بفعله ... وآخر خِرِّيتٌ قُصاراه علمُه

ومقصده جري السفين وحفظها ... ليسلم كل أو ليعظم غنمه

أيركب هول البحر دون مقاوم ... وفي طيه حرب كما يؤذن اسمه

لذاك ترى ملك الفرنج مؤثلاً ... بعلم على الأيام يمتد يَمُّهُ

ومملكة الإسلام يقلص ظلها ... وينقص من أطرافها ما تضمُّه

على أنها أجدى وأبسط رقعة ... وأوسط إقليماً من الطبع عظمه

وأعرق في منمى الحضارة موضعاً　　وأطـول باعـاً يقلـق الهـام دمـه
ودوخ مغزاهـا الأقـاليم سـبعة　　وتاخمها من سد يا جـوج رَدْمُـه

ويقول في الأمم الغربية:

هم غرسوا دوح التمدن فرعه الر　　ياضـي والعلـم الطبيعـي جذمـه
أيجمـل يـا أهـل الحفيظـة أنهـم　　يبزوننـا علمـاً لنـا كـان فخمـه

ويقول:

لقـد قتلـوا دنيـا الحيـاتين خبـرة　　فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمُه

ومن نبغاء ذلك العهد: الأستاذ الشيخ أحمد بن أبي الضياف، تولى رياسة الديوان بالوزارة الكبرى، وكان الأمير أحمد باي قد جعل اللسان الرسمي للدولة اللغة العربية بعد أن كانت المراسلات تحرر باللسان التركي، فأخذ الشيخ ابن أبي الضياف ينسج في رسائل الدولة على طرز لسان الدين ابن الخطيب، وتلاه الشيخ محمد العزيز بوعتور في رياسة الديوان، وكان كاتباً بليغاً، فصارت مخاطبات الحكومة ببراعة هذين الأستاذين ومن ينحو نحوهما تحرر بأقلام راقية.

* **إدارة المعهد الزيتوني:**

يتولى إدارة شؤون ذلك المعهد أربعة من الشيوخ، وهم: رئيس الإفتاء الحنفي، ورئيس الإفتاء المالكي، والقاضي الحنفي، والقاضي المالكي، ويسمى هؤلاء الشيوخ من جهة نظرهم في شؤون المعهد: «المشايخ النظّار»، ويرأس المجلس شيخ الإسلام الحنفي، واكتسب الحنفية التقدم على المالكية في المواطن الرسمية؛ حيث إن أمراء الدولة الحسينية القائمة لهذا العهد

يتقلدون مذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ.

يجتمع النظار بمكان معد لهم بجانب من المعهد في صبيحة يوم السبت من كل أسبوع، ثم يتناوبون بعد هذا بقية الأيام، فيجيء كل واحد منهم في يوم لإجراء ما قرروه عند اجتماعهم، وينص القانون على أن للناظر أن يختبر أحوال المدرسين بنفسه، فيجلس قريباً من المدرس بحيث يسمع إلقاءه؛ حتى تتميز عنده مراتب المدرسين.

ويساعد المشايخ النظار في الإشراف على التعليم أستاذان من المدرسين يحضران جلسات المشايخ النظار، ولهما إبداء ملاحظاتهما في تلك الجلسات، ولا يعتد برأيهما عند الاقتراع.

وهذان الأستاذان يحرران ـ أو أحدهما ـ كل يوم أحوال الطلبة، وأحوال المدرسين غيبة وحضوراً، ويعرضان ذلك على من يحضر من المشايخ النظار في يومه.

* **العلوم والفنون التي تدرس بالمعهد الزيتوني:**

يدرَّس في ذلك المعهد: التفسير، والحديث، والسير، والتوحيد، والقراءات، والمصطلح، والفقه، والأصول، وآداب الشريعة، والنحو، والبيان؛ واللغة، والأدب، وعلم العروض، والمنطق، والتاريخ، والجغرافية؛ والحساب، والهندسة، والهيئة والميقات، والمساحة.

ينص القانون على أن هذه العلوم والفنون تدرس في نفس الجامع، ولكن الطلاب ـ فيما أعرف ـ يتلقون بعض العلوم الحديثة؛ كالجغرافيا والهندسة بمدرسة الخلدونية، وهي مدرسة بمقربة من المعهد تقوم بها جمعية أهلية، إلا أنها تتناول مساعدة سنوية من إدارة الأوقاف.

ولم يكن الإنشاء مما يتلقاه الطلاب على طريقة التمرين، وأذكر أني كنت وجهت إلى المشايخ النظار خطاباً مفتوحاً أطلب فيه العناية بدرس الإنشاء على طريقة عملية، آثرت أن يكون الخطاب نظماً، ويحضرني منه الآن:

بذلتم في نَفاق العلم وسعاً ... وذللتم طرائقه الصعابا
فأصبح معهد العرفان صرحاً ... رفيعاً لا نظير له غرابا
ولكن الخصاصة في فنون ... تساورنا المخافة أن نعابا
أصاب صناعة الإنشاء محل ... وغاض معينها إلا سرابا
أنرمي نحو وادينا بقشر ... ويحرز غيرنا منها اللبابا

* * *

أفي علم البيان نغوص فهماً ... ونملأ من جواهره الوطابا
وإن ركبت أناملنا يراعاً ... تعاصى أن يشق بها عبابا
ومن ركب الأتان لدى سباق ... أبى إلا الزراية والعتابا
وليس بنافع تقليد رمح ... لشخص لم تعلمه الحرابا

وأذكر منها:

ولا ترقى شؤون الشعب إلا ... بأقلام تناقشه الحسابا
وتكشف عن شموس الجو لبساً ... تراكم تحت غرتها سحابا
وما الحادي بشعر أبي فراس ... وقد جست أنامله الربابا
بأعذب من صدى قلم تهادى ... على طرس يخط به كتابا

وأرشق منظراً مـن لحـظ قلبـي ... توسـد بـاللوى الـذهب المـذابا
دواة فـــي زجاجتهـــا مــــداد ... نـصوغ علـى البعـاد بـه خطابـا

*** الكتب التي تدرس بالقسم العالي :**

أقتصر هنا على ذكر ما يدرس في المرتبة العالية من الكتب؛ إذ هي التي يعرف بها مدى التعليم، وكفاية المتخرجين الذين استمروا على تلقي العلم إلى انتهاء أمد الدراسة.

يعين القانون لقراءة التفسير: «الجلالين»، و«أسرار التنزيل» للقاضي البيضاوي، ولقراءة الحديث: «الموطأ بشرح الزرقاني»، و«صحيح الإمام البخاري بشرح القسطلاني»، و«صحيح الإمام مسلم بشرح الأبي»، وكتاب «الشفا» للقاضي عياض بشرح الشهاب.

ولقراءة علم الكلام؛ «العقائد العضدية بشرح السعد»، و«المواقف بشرح السيد الشريف»، ولقراءة الأصول: «التوضيح بشرحه المسمى بالتلويح»، و«مختصر ابن الحاجب بشرح العضد»، و«جمع الجوامع بشرح الجلال المحلي». ولقراءة علم النحو: «مغني اللبيب»، و«شـرح الأشـموني على الخلاصة»، ولعلم البلاغة: «التلخيص بشـرح المطول للسـعد»، والقسـم الثالث من «المفتاح بشـرح السيد»، ولقراءة علم اللغة والأدب: «المزهر» للسيوطي، و«الحماسة بشرح المرزوقي»، و«المثل السائر لابن الأثير»، ولقراءة المنطق: «شرح القطب على الشمسية»، ومما يدرس للتاريخ: «مقدمة ابن خلدون».

ومن هنا يستبين الناظر أن الأزهـر وجامع الزيتونة يتحـدان في أغلب ما يدرس من الكتب، إذن، فالثقافة في المعهدين واحدة، أو متقاربة.

* **المدرسون:**

الذين يقومون بالتدريس في ذلك المعهد ثلاث طبقات:

١ ـ مدرسون من الطبقة الأولى، وهم ثلاثون مدرساً.

٢ ـ ومدرسون من الطبقة الثانية، وهم اثنا عشر مدرساً.

٣ ـ ومدرسون من الطبقة الثالثة، وهم خمسون مدرساً.

وبعد هؤلاء أستاذان يختصان بدرس القراءات.

والمدرسون من الطبقة الأولى يقرئون كتب المرتبة العالية، ويشتركون مع مدرسي الطبقة الثانية في إقراء كتب المرتبة المتوسطة، والمدرسون من الطبقة الثانية يدرِّسون كتب المرتبة المتوسطة، ويشاركون في تدريس كتب المرتبة الأخيرة.

والمدرسون من الطبقة الثالثة مقصورون على دراسة كتب المرتبة الثالثة، وللنظارة أن تأذن لهم في إقراء كتب المرتبة المتوسطة.

لا يجلس للتدريس في المعهد إلا من كان بيده شهادة من نفس المعهد، أما العلماء الذين يردون على حاضرة تونس، فإنما يسوغ لهم التدريس بعد إجازة المشايخ النظارة، وموافقة الدولة.

ويحتوي القانون على نصائح وآداب للمدرسين؛ كما يقول: «على المدرس أن يتثبت في الفهم والنقل حتى يكون على بصيرة من أمرهما، ولا يتوثق بأول بارق، ويستبرئ لدينه ولعرضه من نقل الخطأ عنه، وإذا أخطأ في فهم أو نقل، فعليه بمقتضى ديانته أن يصدع بالحق».

ومما يقول: «ليس لأحد أن يبحث في الأصول التي تلقتها العلماء جيلاً بعد آخر، ولا أن يكثر من تغليط المصنفين؛ فإن كثرة التغليط أمارة الاشتباه

والتخليط، بل عليه أن يبذل الوسع في فهم مراد الفضلاء، ولا يلقي البحث إلا بعد التحري والإحاطة بأطراف الكلام، والتدبر في فهم المراد».

*** التلاميذ:**

يتخذ كل تلميذ دفتراً يكتب له فيه أساتذته في كل شهر شهاداتهم بالحضور، وحال المواظبة، ودرجته في النجابة والفهم، ويذكرون الباب أو المسألة التي كانت مبدأ حضوره في الكتاب، كما يذكرون البحث الذي انتهى إليه وقت كتابة الشهادة.

ويبلغ عددهم في هذا المعهد زهاء ألفين، ومعظمهم من القطر التونسي، ومن بينهم كثير من القطر الجزائري، ويوجد من بينهم طلاب من طرابلس الغرب، والمغرب الأقصى.

وقد اشتمل قانون المعهد على نصائح وآداب للطلاب؛ كما يقول: «يلتزم التلميذ آداب السؤال، فيسأل سؤال مسترشد ملتزماً اللطف في سؤاله». ويقول: «لا يسوغ للتلميذ التلهي عن الدرس بحديث أو غيره، وإذا سأل التلميذ، فليس لغيره من الطلاب أن يجيبه إلا إذا أذن له الشيخ في الجواب».

ويقول في التلميذ يسيء الأدب مع أستاذه: «فعلى الشيخ أن يلومه أولاً فيما بينهما، فإن عاد، وبخه بمحضر أقرانه، فإن عاد، رفع الأمر للنظارة كتابة؛ لتجازيه بما ترى من لومه أو توبيخه أو رفته من المعهد رفتاً مؤقتاً أو باتاً».

*** الامتحان:**

تعقد عند انتهاء أيام الدراسة من كل سنة لجان من المدرسين لاختبار التلاميذ فيما قرؤوه في تلك السنة، (وهو امتحان النقل).

ويجرى امتحان لأخذ شهادة «التطويع»، وهذه الشهادة منظور إليها كشهادة العالمية في الأزهر؛ من جهة ما يترتب عليها من نيل بعض المناصب، إلا أن دراسة الطالب نحو سبع سنين تكفي لقبوله للامتحان، وإحرازه هذه الشهادة، والمقرر لهذا الامتحان مقالة تحرر ارتجالاً، وعلى مرأى من المراقبين في باب من أبواب الفقه، ثم إلقاء درس بعدها في الأصول، أو الفقه، أو الكلام، أو النحو، أو المنطق، أو البلاغة، على حسب ما تقع عليه يد الطالب من أوراق كثيرة تعين فيها دروس من هذه العلوم، وتوضع في ربعة، ومدة مطالعة الدرس ـ فيما أعرف ـ ست ساعات، ثم تلقى على الطالب في يوم بعد يوم الدرس تسعة أسئلة من تسعة علوم ليجيب عنها حال السؤال، والعلوم التي تطرح منها الأسئلة هي: الفقه، والنحو، والصرف، والمنطق، والبلاغة، والحساب، والهندسة، والجغرافية، والتاريخ.

يتولى هذا الامتحان المشايخ النظار بأنفسهم، ويلقي الممتحنون الدروس، وتلقى عليهم الأسئلة في مجمع عام يشهده من شاء من المدرسين والطلاب وغيرهم.

والذي يلاحظ: أن ليس في مواد الامتحان علم الحديث والتفسير، مع أنهما يدرسان في المعهد، ونحن نود أن يكون هذا العلمان في أول ما يجري فيه الامتحان، ولو أفضى الحال إلى مد أجل الدراسة سنتين أو ثلاثاً.

ونود لو أن المشايخ النظار يأخذون بطريقة مناقشة الطلاب في درس الامتحان حتى يتضح مقدار فهم الطالب جلياً، ولتكون هذه المناقشة من دواعي مواظبتهم على الدروس، وإقبالهم على ما يقرره الأستاذ؛ ليكونوا من كل ما يلقيه على بينة.

*** مثل ممن تلقينا عنه في ذلك المعهد:**

أذكر لحضراتكم من كبراء أساتذتنا ثلاثة امتاز كل واحد منهم بناحية جعلته عبقرياً متناهياً:

أحدهم: أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبو حاجب، حضرت دروسه عندما أخذت في قراءة الكتب العالية، فشعرت بأني دخلت في مجال أفسح للنظر، وأدعى لنشاط الفكر؛ إذ لم يكن الأستاذ مما يقصر مناقشته على عبارات المؤلفين، بل كان يتجاوزها إلى نقد الآراء نفسها، ويتجاوز النقد إلى الغوص على أسرار المباحث، دينية كانت أم عربية، ولا يترك في درس الكتب الشرعية أن يعقد الصلة بين أصول الإسلام ومقتضيات المدنية الحاضرة.

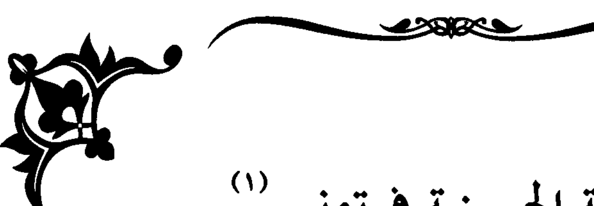
ثانيهم: أستاذنا المرحوم الشيخ عمر بن الشيخ، وكان هذا الأستاذ نافذ الفكر في المباحث الغامضة، قديراً على حل المسائل العويصة، ولكنه لا يكثر من مناقشة المؤلفين وذوي الآراء، وإذا ناقش في عبارة أو رأي، فبأدب واحترام، وقد درس هذا الأستاذ كتاب «المواقف» من فاتحته إلى منتهاه، وكان يوم ختمه لهذا الكتاب يوماً مشهوداً.

ثالثهم: أستاذنا المرحوم الشيخ محمد النجار، وكان هذا الأستاذ واسع الاطلاع، غزير العلم، وإذا صح لنا أن نعد الأستاذ الشيخ سالم أبا حاجب إخصائياً في علوم اللغة والنحو والبلاغة والأدب؛ لظهور رسوخه في هذه العلوم أكثر من غيرها، وصح لنا أن نعد الأستاذ الشيخ عمر بن الشيخ إخصائياً في الفقه والكلام والمنطق والفلسفة؛ لظهور مكانته في هذه العلوم أكثر مما سواها، فإن الأستاذ الشيخ محمد النجار كان نحريراً في العلوم

التي تدرس في جامع الزيتونة في درجات متساوية أو متقاربة.

هذا ما وسع المقام من الحديث عن الحالة العلمية في جامع الزيتونة، وكانت الحكومة منذ أشهر قد ألفت لجنة للنظر في إصلاح قانون ذلك المعهد، ونرجو أن تكون اللجنة قد عملت صالحاً.






الدولة الحسينية في تونس[1]

بقيت البلاد التونسية منذ الفتح الإسلامي ولاية تابعة للخلافة في الشرق حتى تولى أمرها إبراهيم بن الأغلب بعهد كتبه له هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ، فأسس دولة تسمى: الدولة الأغلبية، ثم انقرضت هذه الدولة، وقامت بعدها الدولة العبيدية، ومؤسسها عبيدالله المهدي جد المعز لدين الله الذي انتقل إلى مصر وأسس الدولة الفاطمية. وخلفت الدولة العبيدية الدولة الصنهاجية، ومؤسسها بلكين بن زيري من قبيلة صنهاجة إحدى القبائل البربرية، ثم وقعت البلاد في يد عبد المؤمن بن علي، أحد أصحاب المهدي بن تومرت، فساسها الموحدون حيناً، ولم تلبث أن تولاها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي، فأعلن استقلاله عن سلطان مراكش من آل عبد المؤمن، وأقام بانفصاله عنهم دولة تسمى: الدولة الحفصية، ولما ذهبت ريح هذه الدولة، وتداعت إلى السقوط، أزمع خير الدين باشا ـ الذي كانت صناعته (القرصنة) في البحر الأبيض ـ الاستيلاء على تونس، وضمها إلى ممالك الدولة العثمانية، فدخلها سنة ٩٣٥، وخطب بها للسلطان سليمان القانوني.

ثم أن الأمير الحفصي الذي فر من وجه خير الدين باشا استنجد بملك

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السادس من المجلد الأول الصادر في ذي القعدة ١٣٤٧.

إسبانيا (شارلكان)، فأمده بقوة بحرية استطاع بها أن يستعيد ملك تونس، ولكن تحت الحماية الإسبانية.

ثم إن علي باشا أحد ولاة الدولة العثمانية ببلاد الجزائر زحف إلى تونس فطرد منها الإسبان سنة ٩٧٧، وأخذ البيعة للسلطان سليم الثاني.

وقدم بعد هذا أسطول ملك إسبانية، واستولى على تونس مرة أخرى، ونصبوا بها محمد بن الحسن الحفصي على شرط الحماية والمشاركة.

ثم إن السلطان سليمان الثاني جهز أسطولاً، وبعث به تحت قيادة الوزير سنان باشا سنة ٩٨١، فأنقذ تونس من يد الإسبان، وخطب فيها باسم السلطان سليم، ووضع لحكومتها نظاماً، ثم قفل راجعاً إلى الآستانة.

ومما صنع في هذا النظام: أن رتب لحراسة البلاد عساكر، وجعل على كل مئة منهم ضابطاً يلقب بالداي، وجعل لهؤلاء الضباط رئيساً يدعى: (الآغا)، وأقام لجباية الأموال والياً يلقب: (الباي)، وعهد بالسفن الحربية إلى قائد يدعى: (قبودان رائس)، أما ما سوى هذا من قضاء، أو تدبيرِ شأن، فيجتمع إليه هؤلاء الأمراء بمحضر طائفة اختارهم سنان باشا من أعيان البلاد.

واستقل بالأمر بعد هذا رؤساء يلقبون بالدايات، وظهرت بعدهم الدولة المرادية، وكان رجالها يلقبون بالبايات، وصارت الولاية من بني مراد إلى المدعو إبراهيم الشريف باي الذي أقام حسين بن علي تركي (مؤسس الدولة الحسينية) كاهية له، يتولى النظر في كثير من شؤون الحرب والسياسة.

وجرى بعد هذا ما دعا أهل الحل والعقد من العقلاء والأعيان ورجال العسكرية أن اجتمعوا، وبايعوا حسين بن علي تركي في ٢٠ ربيع الأول ١١١٧،

وكان هذا مبدأ عهد الدولة الحسينية.

وعلي تركي من «كندية» (بلد بجزيرة كريت)، وفد إلى تونس في عهد الدولة المرادية، وانتظم في الجندية إلى أن توفي سنة ١١٠٣، ونشأ ابنه حسين تحت رعاية البايات من بني مراد، وتقلب في مناصب كبيرة إلى أن بويع الإمارة كما قصصنا.

ومن مآثر حسين باي: أنه شاد بمدينة تونس (المسجد الحسيني)، وأقام بجانبه المدرسة الحسينية، وأنشأ مدرسة إزاء جامع الزيتونة يقال لها: مدرسة النخلة، وبنى مدارس بالقيروان، وسوسة، وبلاد الجريد.

وقام بالأمر بعده ابن أخيه علي بن محمد، وكان حسين باي قد وجه عنايته إلى تعليمه حتى أدرك في العلم منزلة عالية، وله على كتاب «التسهيل» لابن مالك شرح لا يزال موجوداً بالمكاتب التونسية.

ومن مآثره: المدرسة الباشية، والمدرسة السليمانية (نسبة إلى ابنه سليمان)، ومدرسة بئر الحجار، ومدرسة حوانيت عاشور، وأقام في كل مدرسة بالحاضرة وغيرها من البلاد خزانة كتب، وكان قد بعث الشيخ حسين البارودي أحد كبار أهل العلم إلى الآستانة ليشتري له جانباً من أعز الكتب وأنفسها، ومن الأدباء الذين اشتهروا في عهده: الشاعر علي الغراب الصفاقسي، وأبو عبدالله محمد الورغي.

وقام بالأمر بعده محمد الرشيد بن حسين باي، وكان عالماً بارعاً في الفنون الأدبية، وما لبث أن توفي سنة ١١٧٢، وخلفه أخوه علي بن حسين باي، كان مولعاً بمجالسة العلماء، وله مشاركة في العلوم الإسلامية، وبالأحرى: علم الحديث.

ومن منشآته: المدرسة التي أقامها بجانب تربته، وملجأ (تكية) يحتوي قسمين: قسماً للرجال، وآخر للنساء، ووقف عليه ما يقوم بحاجاتهم من طعام وكسوة وفراش، ومما يذكر عنه: أنه قاد إليه بنفسه نفراً من العُمي، وأطعمهم بيده، ومن محامده: أنه هدم الحانات، ونفذ حكم الشرع في المنع من تعاطي المسكرات.

وخلف علي بن حسين ابنه حمودة بن علي، قرأ هذا الأمير العلوم الدينية والأدبية، ومن مزاياه: أنه كان يفاخر بمصنوعات مملكته، ويسابق إلى لبسها، فيقتدي به رجال الدولة وغيرهم، ومن أقواله المأثورة: «الحلية للنساء لا للرجال، وزينة الرجل ماله وأعماله»، ومن آثاره: المسجد المعروف بجامع حمودة باشا[1].

وقام بالأمر بعده أخوه عثمان بن علي، وتولى بعد عثمان محمود بن محمد الرشيد. وتولى بعد محمود ابنه حسين باي الثاني، وهو الذي أمر أرباب الوظائف والرتب العسكرية بتغيير زيهم على نحو ما جرى في الدولة العثمانية.

وقام بالأمر بعده أخوه مصطفى بن محمود باي، وهو أول من وضع أوسمة الافتخار تصاغ مرصعة بالألماس، ومنقوشاً عليها اسم ملك البلاد.

وتولى الملك بعده ابنه أحمد باي، ونحا هذا الأمير في سياسته نحو الاستقلال التام، فأنشأ مدرسة حربية بباردو، وطلب إليها أساتذة من أوروبا

---

(١) جرى تصحيح في المجلد الأول ـ الجزء الثامن ـ من مجلة «الهداية الإسلامية» تضمن أن الجامع المعروف بجامع حمود باشا هو من حسنات حمودة باشا المرادي ثاني ملوك الدولة المرادية المتوفى سنة ١٠٧٦هـ.

سنة ١٢٥٥، وأخذ في ترجمة كتب في الفنون العسكرية، وهو أول من وضع نظاماً للتعليم في جامع الزيتونة، وأقام به نحو عشرين خزانة من الكتب القيمة، وهو أول من احتفل بمولد أفضل الخليقة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المظهر الذي يقام به في الحاضرة لهذا العهد، فيشهد الملك في اليوم الحادي عشر صلاة العصر، ثم صلاة العشاء في جامع الزيتونة، وهو حافل بقراءة القرآن، ثم يعود في صبيحة اليوم الثاني عشر إلى الجامع نفسه ليحضر تلاوة قصته التي ألفها الأستاذ الشيخ إبراهيم الرياحي.

ومما يذكر في تاريخ هذا الأمير: أنه أصدر أمراً بمنع بيع الرقيق في المملكة التونسية سنة ١٢٦٢، وبعتق كل من كان بها من الأرقاء، وقد رأيت للعلامة الشيخ إبراهيم الرياحي ـ الذي كان يمثل في كثير من مواقفه أمام أمراء تونس موقف عز الدين بن عبد السلام في مصر والشام ـ كتاباً يستحسن فيه ما صنعه هذا الأمير من تحرير الأرقاء، ومنع الاتجار بهم، استناداً إلى أن أصل الاستيلاء عليهم لم يكن على وجهه المشروع، ونظراً إلى ما غلب على مالكيهم من سوء معاملتهم، وعدم الاحتفاظ بما تأمر به الشريعة من الرفق بهم، واتخاذهم كإخوان أو أبناء، وهو أول من خاطب الدولة العثمانية في مكاتبيه باللسان العربي، وكانت قبل هذا تحرر باللسان التركي.

وقام بالأمر بعد أحمد باي ابن عمه محمد بن حسين الثاني، ومما يذكر به هذا الأمير: أنه وضع قانوناً أساسياً يكفل لسكان البلاد الحرية والمساواة في الحقوق، ويدعى هذا القانون: «عهد الأمان»، وقرئ هذا القانون في موكب شهده رجال الدولة، وأعيان البلاد، ومعتمدو الدول الأوربية في ٢٠ المحرم سنة ١٢٧٤، وحلف الملك في هذه الحفلة على إنفاذه.

وعني هذا الأمير بتنظيم المحكمة الشرعية، فأقام دار الشريعة التي تسمى: «الديوان»، وحضر يوم فتحها بنفسه، وهو أول من استجلب أدوات الطباعة، واستعملها في البلاد التونسية، وأول من ضرب السكة باسمه جاعلاً اسمه، في أحد وجهي المسكوك، واسم السلطان العثماني في وجهه الآخر.

وتولى بعد محمد باي أخوه محمد الصادق بن حسين الثاني، نظم هذا الأمير منهج التعليم في جامع الزيتونة، وأضاف إلى خزائنه التي أنشأها أحمد باي كتباً كثيرة، وأنشأ هذا الأمير مدرسة الصادقية، وهي معهد أنشأه لتدرس فيه مبادئ العلوم الإسلامية والعربية، ثم العلوم العصرية واللغات الأجنبية، وأحيا المكتبة القائمة بجوار جامع الزيتونة، وهي مكتبة عامة تدعى: (المكتبة الصادقية)، وأوسع العمل بدار الطباعة، فظهرت بها الصحيفة التي تسمى: «الرائد التونسي»، وانتخب للتحرير بها أساتذة من كبار العلماء بجامع الزيتونة، فكانت صحيفة علمية أدبية سياسية، زيادة على ما تنشره من القوانين والمرسومات الحكومية.

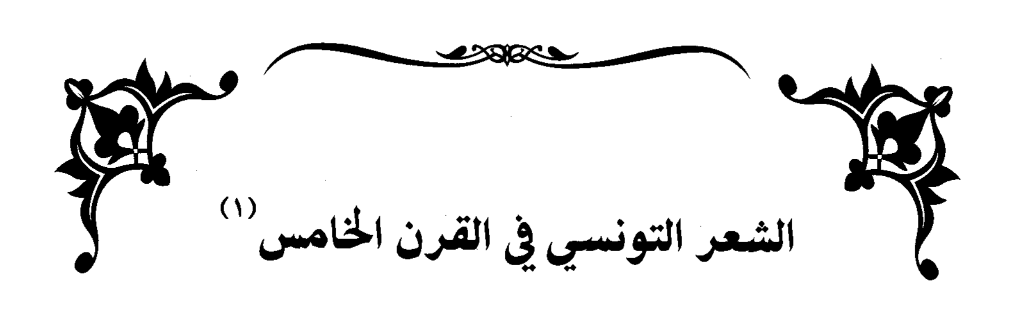
وقام بتنفيذ مشروع عهد الأمان الذي أسسه محمد باي، وأنشأ مجالس أهلية، وألف مجلساً أعلى للنظر في مصالح الأمة.

وفي عهد هذا الأمير وضعت الدولة الفرنسية يدها على تونس، ولم يلبث أن توفي سنة ١٢٩٩، وخلفه أخوه المغفور له علي باشا باي، وبعد وفاته سنة ١٣٢٠ انتقل الملك إلى المغفور له ابنه محمد الهادي باي، وعرف هذا الملك بشهامة وغيرة جذبتا إليه قلوب الأمة، وكان أثرها يظهر في شؤون الدولة بقدر الإمكان، وتوفي سنة ١٣٢٤، وورث الملك بعده المغفور له ابن عمه محمد الناصر بن محمد باي حتى توفي سنة١٣٤٠، وخلفه المغفور له

محمد الحبيب بن المأمون بن حسين الثاني، وهو الذي توفي في يوم الاثنين غرة رمضان من هذه السنة، وجلس على عرش الملك بعده حضرة صاحب الجلالة أحمد باي، وهو أحمد الثاني بن علي باي الثالث بن حسين الثاني ابن محمود بن محمد الرشيد بن حسين الأول مؤسس الدولة الحسينية.

ومجمل القول: أن آثار البيت الحسيني في نشر العلوم، والمحافظة على أصول الدين الحنيف غير قليلة، وما زهت العلوم الإسلامية والعربية وغيرها في تونس، وتسابق فيها العلماء والأدباء إلى غاية بعيدة إلا بما كان يظهره أمراء هذه الدولة من العناية بالعلم ورعاية العلماء، ولولا جامع الزيتونة، وما أحيوا فيه من علوم، لبقيت تلك البلاد في عذاب من الجهالة مهين.





الشعر التونسي في القرن الخامس[1]

نهضة أدبية راقية، ظهرت بتونس في القرن الخامس للهجرة، نهضة أشرقت سماؤها بنجوم زاهرة، وقذفت بحارها بدرر فاخرة، ولهذه النهضة مهيئات ساعدت على نشأتها، وسمو غايتها، وبهجة أثرها.

من مهيئاتها: أن للأدب في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس سوقاً قائمة في الشرق؛ أعني: العراق والشام ومصر، وسوقاً قائمة بالغرب؛ كبلاد الأندلس.

وموقع البلاد التونسية بين هاتين النهضتين، بحيث يعبر عليها أدب الشرق إلى الغرب، وأدب الغرب إلى الشرق، فلا جرم أن تهز تونس نشوة البلاغة حتى تسابق في حلبة البيان بخطا واسعة المدى.

ومن مهيئات تلك النهضة الأدبية: أن القيروان التي هي مبعث نورها، كانت دار العلوم بالمغرب، يرحل إليها طلاب العلم، ويغترفون من بحار معارفها الزاخرة، ومن بين علومها الزاهرة: علوم اللغة العربية وآدابها.

ولا أطيل الحديث عن ازدهار هذه العلوم بالقيروان، فقد ألف في أخبار القيروان وتراجم علمائها وأدبائها كتب كثيرة، وأكتفي بأن أقول:

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد التاسع الصادر في رجب ١٣٥٥.

إن من علمائها الذين عاشوا في أواخر القرن الرابع، أو أدركوا بضع سنين من القرن الخامس رجالاً يشار إليهم بالبنان؛ مثل: محمد بن جعفر القزاز صاحب المؤلفات في اللغة والأدب ونقد الشعر، وهو صاحب كتاب «ضرائر الشعر»؛ أي: الضرورات التي يجوز للشاعر ارتكابها دون غيره، ومثل: عبد العزيز بن أبي سهل الخشني؛ فقد كان من الراسخين في اللغة والنحو، وكان الشعراء الحذاق يجلسون بين يديه، ويعرضون عليه أشعارهم لنقدها.

وانتشار علوم اللغة وآدابها في وطن، مما يبعث قرائح أبنائه على صناعة الشعر، ويساعدها على أن تصوغ القريض في أسلوب حكيم.

ومن مهيئات تلك النهضة الراقية: أن الشعر التونسي كان له في القرن الرابع جودة وحسن بيان، ومن حذاق شعرائه: علي بن العباس الأيادي، وهو الذي وصف سجع الحمائم عند فلق الصبح في أبيات قال فيها:

قد ولد الصبح فمات الدجى ... صاحت فلم ندر غِنا أم نواح

ومنهم: ابن عبدون السوسي، رحل إلى صقلية، ومما قال أيام رحلته متشوقاً إلى القيروان:

يا قصر طارق همي فيك مقصور ... شوقي طليق وخطوي عنك مأسور

إن نام جارك إني ساهر أبداً ... أبكي عليك وباكي العين معذور

عندي من الوجد ما لو فاض من كبدي ... إليك لاحترقت من حولك الدور

ويدلكم على ازدهار الشعر التونسي في القرن الرابع: أنه كان في متناول بعض السيدات المهذبات؛ مثل: خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري.

وفي ذلك القرن ورد القيروان الشاعر المبدع أبو القاسم المعروف

بابن هانئ ، وحط بها رحله، ونال لدى المعز العبيدي حظوة وكرامة. وأديب عبقري كابن هانيء ينـزل وطناً، لا بد أن يكون له في حركتـه الأدبية أثـر مبين.

ومن مهيئات تلك النهضة الراقية: أن الحضارة بالقيروان ما زالت تتقدم شوطاً فشوطاً، إلى أن أدركت في أوائل القرن الخامس غاية بعيدة، وأخذت مناظر أنيقة، فارتقت الصناعة، واتسعت طرق التجارة، وأنشئت القصور المشيدة، والمتنزهات الرائقة، فكان في بدائع المدنية وزخارف العمران ما ينمي قوة التخيل، ويساعدها على أن تسرح في حدائق فسيحة، وتصوغ المعاني في صور غريبة.

ومن مهيئات تلك النهضة الأدبية: أن المعز بن باديـس الذي تولـى الملك سنة ٤٠٦ كان على جانب عظيم من علوم اللغة وآدابها، فكانت دراسته لآداب اللغة العربية معينة له على تقدير قيمة الشعر، وباعثة له على الاحتفال بنوابغ الشعراء؛ ويحدثنا التاريخ: أنه كان لا يسمع بشاعر بارع إلا ويدنيه من حضرته، حتى اجتمع حول قصره نحو مئة شاعر يرأسهم أستاذه ووزيره علي بن أبي الرجال.

وتولى الملك بعد المعز ابنه تميم، وكان أديباً بليغاً، وقصدته الشعراء من الآفاق، فكانوا يجدون عنده من الاحتفاء البالغ ما كانوا يجدونه من والده المعز.

ولا شك أن إقبال المعز وابنه تميم من بعده على الشعراء إقبالاً يفتح في وجوههم أبواب الأمل، ويجعلهم في هناءة وراحة بال، مما يزيد الهمم تعلقاً بهذه الصناعة النبيلة.

ثم إن الأمة التي يجد منها الشعر أذواقاً لطيفة، وإحساساً رقيقاً، شأنها أن تحتفل بالأدباء، ولا ترفع إلا من رفعه أدبه، وذلك ما يدعو إلى التنافس في صوغ القريض، وإطلاق القرائح في مراعيه الخصيبة، وفنونه البهيجة.

تجمعت هذه المهيئات بتونس، فولدت في القرن الخامس نهضة أدبية، قلما تجود بمثلها الأيام، فظهر في هذا العهد رجال أحكموا صناعة القريض، وذهبوا في فنونه كل مذهب، وأتوا بما يسترعي الأسماع، ويأخذ بالألباب.

ولا يسع المقام أن أذكر من عرفتهم من شعراء ذلك العصر؛ وأورد لكل شاعر شيئاً مما قرأته له من الشعر، وإنما أريد أن أسوق شواهد على أن الشعر التونسي في ذلك العهد يساير الشعر الراقي في سائر البلاد العربية جنباً لجنب، وأن شعاره جودة التصرف في المعاني، وإيرادها في صور شيقة، ثم تخيّر الألفاظ المأنوسة الرشيقة ووضعها في سلك الوئام والائتلاف.

فمن الأدباء البارزين في ذلك القرن: أبو علي الحسن بن رشيق، وشعره يدور في كتب الأدب كثيراً، ومن بديع شعره: قوله مخاطباً لشخص كان ابن رشيق قد رجاه في أمر، فساوفه فيه، ثم قطع رجاءه:

رجوتك للأمر المهم وفي يدي ... بقايا أُمَنِّي النفس فيها الأمانيا

فساوفت بي الأيام حتى إذا انقضت ... أواخر ما عندي قطعت رجائيا

وكنت كأني نازف البير طالباً ... لإجمامها أو يرجع الماء صافيا

فلا هو أبقى ما أصاب لنفسه ... ولا هي أعطته الذي كان راجيا

ويعجبني من شعره قوله:

قد أحكمت مني التجا ... رب كل شيء غير جودي

أبـــداً أقـــول لـــئن كـــسبـ ـــت لأقبـضن يـدي شـديد
حتـــى إذا أثريـــت عـــد ت إلـى الـسماحة مـن جديـد

ومن أحرز شهرة في ذلك العصر: أبو إسحاق المعروف بالحصري، وهو صاحب، كتاب «زهر الآداب». ومن شعره يصف سجع الحمائم في الأسحار:

يـا هـل بكيـت كمـا بكـت وَرْقُ الحمـائم فـي الغـصون
هتفـــت ســـحيراً والربـــا للقطـــر رافعـــة العيـــون
ذكرتنـــي عهـــداً مـــضى للأنـــس منقطـــع القـــرين
فتـــــصرمت أيامـــــه وكأنهـــا رجـــع الجفـــون

ومن هذه الطبقة: أبو الحسن علي بن عبد الغني المعروف بالحصري أيضاً، ومن شعره السائر في الأندية قصيدته التي يقول في طالعها:

يـا ليـلُ الـصبُّ متـى غـده أقيـــام الـــساعة موعـــده

وقد وازنها جماعة من الشعراء في القديم والحديث.

ومن لذيذ شعره: قوله متشوقاً إلى صديقه أبي العباس النحوي ببلنسية من بلاد الأندلس:

قامـت لأنفاسـي مقـام طبيبهـا ذكـرى «بلنـسية» وذكـر أديبهـا
حـدثتني فـشفيت منـي لوعـة أمسيت محتـرق الحشا بلهيبهـا
مـا زلـت أذكـره ولكـن زدتنـي ذكراً وحسب النفس ذكر حبيبهـا
أهوى بلنسية ومـا سـبب الهـوى إلا أبـو العبـاس أنـس غريبهـا
هب النسيم ومـا النـسيم بطيـب حتـى يـشاب بطيبـه وبطيبهـا

ومن هذه الطبقة الذائعة الصيت: محمد بن شرف، وشعره كشعر قرينه ابن رشيق، يجري في نوادي الأدب كثيراً، ومن أبدع تشابيهه قوله:

إني وإن عَزَّني نيلُ المنى لأرى ... حرص الفتى خلّة زيدت على العدمِ

تقلدتني الليالي وهي مدبرة ... كأنني صارم في كف منهزم

وقوله:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم ... فكأنني سبابة المتندم

هؤلاء الأدباء الأربعة: ابن رشيق، وابن شرف، والحصريين، قد طارت لهم سمعة في الشرق والغرب، وترددت أسماؤهم وأشعارهم في كتب الأدب كثيراً، وهناك شعراء أدرك أسماءهم شيء من الخمول، ولم يحفظ التدوين من آثارهم إلا قليلاً.

ومن أهل هذه الطبقة: علي بن حبيب التنوخي الصفاقسي، ومن شعره يتشوق إلى ليال قضاها عند صديق كناه بابن حسين: قوله:

يا ليالي في ذرا ابن حسين ... هل معاد قبل الممات إليّا

قد نشرنا صحائف الحزن نشراً ... وطوينا العزاء بعدك طيّا

وأطلنا البكا عليك وإني ... لعليم أن ليس يرجع شيّا

فإلى الله من فراق رماني ... عنك بعد الدنو مرمى قصيّا

ومن هذه الطبقة: الشاعر المعروف بالتراب السوسي، ومن رقيق شعره: قوله من قصيدة يمدح بها جبارة بن كامل المتغلب على سوسة:

بات بالأبرق برق يتسامى ... فجفا الجفن لرؤياه المناما

طلعت راياته خافقة ... خفقان القلب صبّاً مستهاما

بـذمام الحـب يـا بـرق عـسى لـك علـم، حـبهم أعيـا الأنامـا
آنـسوا عامـاً فلمـا ملكـوا رِقَّ قلبـي أوحـشوا عامـاً فعامـا

ومنهم: علي بن فضال القيرواني، ومما ينسب إليه من الشعر: تلك الأبيات السائرة:

وإخـوان حـسبتهم دروعـاً فكانوهـا ولكـن للأعـادي
وخلـتهم سـهاماً صـائبات فكانوهـا ولكـن فـي فـؤادي
وقـالوا قـد صـفت منـا قلـوب لقـد صـدقوا ولكـن مـن ودادي
وقـالوا قـد سـعينا كـلَّ سـعي لقـد صـدقوا ولكـن فـي فـساد

ولم تكن نهضة الأدب في ذلك العهد واقفة عند حد البراعة في النظم، وحسن التصرف في المعاني، بل تجاوزت هذه الناحية إلى ناحية النظر في قوانين هذه الصناعة، ووجوه نقدها، وفنون محاسنها، ففي هذا العهد ألف ابن رشيق كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، وكتاب «قراصنة الذهب في نقد أشعار العرب»، وألف ابن شرف كتاب «مسائل الانتقاد» تعرض فيه لنيف وخمسين شاعراً، ونبه فيه لبعض أصول النقد، وألف قبلهما عبد الكريم ابن إبراهيم النهشلي كتابه المسمى «الممتع» بيَّن فيه أساليب النقد ومناحيه، ومن نظراته السامية: قوله في فصل من هذا الكتاب:

«قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه؛ وكثر استعماله عند أهلـه بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء، وحد الاعتدال، وجودة الصنعة».

دقت صناعة النقد في ذلك العهد، حتى نرى الأدباء يلحظون من خفي

المآخذ في الشعر مالا يتنبه له إلا ذو ألمعية متقدة، وكان المعز بن باديس نفسه يباري الأدباء في هذا المجال، فيبدي لبعض الشعراء عثرات قد يخفى عليهم مكانها، وهم من أبصر الناس بصناعة الشعر، وأدراهم بوجوه نقده، ومما يساق مثلاً لهذا: أن ابن رشيق أنشده قصيدته التي يقول أولها:

تثبت لا يخامرك اضطراب فقد خضعت لعزتك الرقاب

فعاب المعز قوله في هذا البيت:

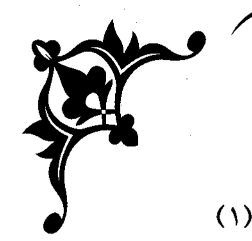
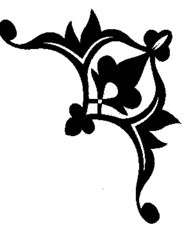
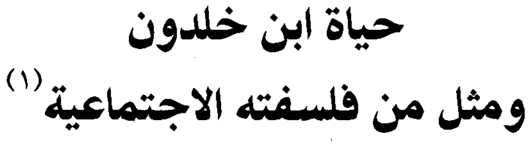
«تثبت»، وقال له: متى عهدتني لا أتثبت!

أيها السادة!

هذا الحديث نبهنا به لنهضة الشعر بتونس في القرن الخامس؛ وإذا كانت صروف الأيام قد جعلت البلاد بعد ذلك العهد لا تنبت من الشعراء المبدعين إلا قليلاً؛ فليس ببعيد أن يكون لتلك النهضة الفذة أثر في رقي الشعر التونسي لعهدنا هذا؛ حتى تقف تونس في صف أخواتها: مصر والشام والعراق؛ فإن القوم الذين يشعرون أن لأسلافهم ضرباً من شواهد النبل والفخار جالت فيه يد الحوادث، يجدون من الحرص على إحيائه؛ والجد في رفع بنائه، ما لا يجد مثله العاملون لإنشاء فخار لا عهد لهم به من قبل.

وقد ظهر في شباب تونس اليوم أدباء ينحون في الشعر نحو الإجادة، بل الإبداع؛ وكأني بعهد الحصريين، وابن شرف، وابن رشيق، قد عاد؛ ولكن في زي يلائم روح هذا العصر؛ وأرجو أن يسير مع المدنية الفاضلة شبراً بشبر، وذراعاً بذراع؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

❑ ❑ ❑

حياة ابن خلدون
ومثل من فلسفته الاجتماعية[1]

*** نسب ابن خلدون:**

هو وليُّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي[2]. ويتصل هذا النسب إلى وائل بن حجر الصحابي الذي وفد على النبي ﷺ، فبسط له رداءه، وأجلسه عليه، ودعا له.

ذكر ابن خلدون نسبه على هذا النسق، وقال: لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة.

*** دخول سلفه إلى الأندلس:**

كان خلدون المذكور قدم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت، ونزل «إشبيلية»، وهي حمص التي يقول فيها صاحب مرثية الأندلس:

وأين حمصٌ وما تحويه من نُـزَهٍ ونهرها العذب فَيّاضٌ وملآن

---

(١) محاضرة ألقاها الإمام في (جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) بالقاهرة مساء يوم الجمعة ٥ صفر ١٣٤٣.

(٢) خلدون بفتح أوله كما نص عليه صاحب «الحلل السندسية» (مخطوط)، وصاحب «نيل الابتهاج» (ص١٦٩ هامش الديباج المذهب). وأصل اسمه خالد، وعرف بخلدون كما جاء في تاريخ المترجم به.

تفرّع آل خلدون في إشبيلية، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة، ثم رحل جده الحسن عقب فتنة خفقت ريحها في تلك البلاد، فنزل «سبتة»، ثم أرخى زمام مطيته متوجهاً إلى مدينة «عنابة»؛ لصلة كانت بين بعض أسلافه وبين صاحبها الأمير زكريا، فلقيه الأمير باحتفاء، وأدخله في سلك رجال دولته، وجرى ابنه محمد على سنته في خدمة الدولة، وأدرك ما ناله والده من وجاهة وإقبال. وانتهى أمر ابنه محمد ـ الذي هو الجد الأدنى للفيلسوف ابن خلدون ـ إلى السكنى بمدينة «تونس»، والانتظام في هيئة الدولة، وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها، ولكن ابنه محمداً ـ وهو والد الفيلسوف المتحدث عن حياته ـ عدل عن مسلك السياسة وخدمة الدولة، وآثر مدارسة العلم ومجالسة الأدباء، فأصبح معدوداً في زمرة العلماء، ومشهوداً له بالتقدم في فن الأدب.

* نشاة ابن خلدون في تونس:

في هذا البيت ـ الذي تقلَّب رجاله في أطوار خطرة، ثم بسط فيه العلم أشعة باهرة ـ ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢، فكانت نشأة ابن خلدون في أسرة امتطت ذرا الرياسة، وخفق فيها روح العلم والأدب، مما ساعد ذكاءه الفطري على أن يشتعل بشدة، وجعل نفسه الذكية بمقربة من الهمم الكبيرة.

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية، وسوق الأدب نافقة. فاستظهر بالقرآن، وتلقى فن الأدب عن والده، ثم أقبل يجتني ثمار العلوم بشغف، ويتردد على مجالسة العلماء الراسخين ـ مثل: قاضي القضاة محمد بن عبد السلام، والرئيس أبي محمد الحضرمي، والعلامة الأبلي ـ.

ولم يكد يستوفي سن العشرين حتى تجلت عبقريته، واستدعاه أبو محمد ابن تافراكين المستبد وقتئذ إلى كتابة العلامة عن السلطان أبي إسحق، وهي «الحمد لله، والشكر لله» تكتب بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم، وهذا مبدأ دخول ابن خلدون في حياته السياسية.

*** عزمه على الارتحال:**

تولى هذا العمل وهو يطوي ضميره على الرحلة من إفريقية؛ لوحشة أثارها في نفسه معظمُ شيوخه، وانطواء مجالس كانت أنهار علومها دافقة، وقطوف آدابها دانية. ويمكنك من هاهنا أن تعرف لابن خلدون وهو في شرخ شبابه مبدأ من مبادئ الفطرة السليمة، والهمة الشامخة، وهو الاستخفاف بالمقام الوجيه لدى الدولة، وإيثار ما فيه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر الأبهة ومواطن الراحة والنعيم.

*** رحلته إلى بجاية:**

لبث ابن خلدون بعد تقليده رسم العلامة أمداً غير بعيد حتى أمكنته الفرصة من أمنيته، وغادر تونس سنة ٧٥٣ إلى «قفصة»، ثم إلى «بسكرة»، ونزل فيها ضيفاً مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني.

ثم خرج منها قاصداً السلطان أبا عنان، وهو يومئذ «بتلمسان»، فصرفه عن قصد أبي عنان، وحمله على المسير معه إلى «بجاية»؛ ليغتبط بصحبته، وتزدهي بمثل ابن خلدون أيام دولته.

*** ابن خلدون عنه سلطان تونس:**

لم يكد ابن خلدون يقضي في كنف صاحب «بجاية» برهة حتى طار صيته، وعبق ذكره في حضره السلطان أبي عنان، وقد جعل هذا السلطان

بعد عوده إلى «فاس» يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً، فاستدعاه من «بجاية» سنة ٧٥٥، فأكمل به نظام مجلسه العلمي، واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه. قال ابن خلدون: «فتحملت هذا العمل على كره مني؛ إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي».

*** اتهامه بالمؤامرة على ما يغضب السلطان:**

حظي ابن خلدون لدى أبي عنان، وارتقى في دولته مكاناً علياً، فأخذ حَرُّ الحسد يلفح قلوب بعض منافسيه، فأخذوا يبيِّتون له المكايد، وينصبون له شرك السعاية، حتى استطاعوا أن يدخلوا إلى إفساد قلب السلطان عليه من باب السياسة؛ إذ رموه بالدخول في مؤامرة مع الأمير محمد صاحب «بجاية». ولتهمة الائتمار على نقض شيء مما تبنيه يد الدولة سهام لا تكاد تخسأ، إذا لم تصب المقاتل، أوهت العظم، وقلقلت الحشا، وسلبت الأجفان نومتها الهادئة، وبالأحرى حيث لم تكن قضاياها مما يوكل إلى اجتهاد محكمة عادلة، وإنما ينفرد بسماع بلاغها، ويستبد بتقدير عقوبتها أحد الخصمين الذي هو الرئيس الأعلى.

*** ابن خلدون في السجن:**

انطلت تلك التهمة على فكر أبي عنان، فقبض على ابن خلدون والأمير محمد، وزجَّهما في السجن. وكانت هذه النكبة أول مالقيه ابن خلدون من بلاء السياسة، وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً، وأنَّ عزاً تبنيه للرجل صباحاً قد يأتي عليه المساء فإذا هو الدرك الأسفل من الهوان.

ثم إن السلطان أطلق سبيل الأمير محمد، وترك ابن خلدون يقاسي شدة

الحبس، ويتجرَّع مرارة المحنة، حتى التجأ في استعطافه وجلب مرضاته إلى وسيلة الشعر والمديح، وخاطبه بالقصيدة التي يقول في طالعها:

علـى أيِّ حـال لليـالي أعاتـبُ   وأيَّ صـروفٍ للزمـان أغالـبُ

وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق، وتأتي بالأثر الذي تذهب الحجج الساطعة دونه عبثاً، وما كان من أبي عنان إلا أن هشَّ للقصيدة ـ وكان وقتئذ بتلمسان ـ، ووعد بالإفراج عن ابن خلدون عند حلوله بحاضرة «فاس»، ولكنه لم يلبث بعد إيابه إلى الحاضرة إلا خمس ليالي، فطرقه الوجع، لقي أجله قبل أن يفي بوعده لابن خلدون.

*** خروجه من السجن، وولايته كتابة السر وخطَّة المظالم:**

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق سراح ابن خلدون من الاعتقال، وخلع عليه من الإكرام بُرداً ضافياً، وأعاد إليه ما كان يتقلده من أعمال الدولة.

وعندما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون على كتابة سرِّه، وألقى إليه الأمر في إنشاء مخاطباته، فعدل بالإنشاء عن طريقة التسجيع، وأخذ به في طريق الترسل ـ ولم يكن كتَّاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل ـ، فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه، وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير.

ولم تزل مكانته لدى أبي سالم راضية، ولم تزحزحه سعاية ابن مرزوق ـ التي تناولت أكثر رجال الدولة ـ عما كان يتولاه من كتابة السر، وإنشاء المخاطبات، بل لم تقف في سبيل تقليده خطةَ المظالم آخر عهد الدولة، حتى ثار الوزير عمر بن عبدالله على السلطان، ونبذ الناس بيعته من أعناقهم.

* ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبدالله :

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبدالله، وكانت بينه وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودة وصحبة، فأقره على ما كان يتولاه من العمل، وزاد في جرايته. وكان ابن خلدون يطمح بطغيان الشباب إلى غاية أسمى مما يتولى من الأعمال، وفي أمله أن عناية صديقه المقتدر لا تتريث في إسعافه ببغيته. ولما لاح له أن الوزير أخلَّ بعهد الصحبة، أخذه الاستياء من تقصيره إلى أن انقطع عن دار السلطان وهجرها إدلالاً بسابق المودة، ولكن منصب الوزارة أنسى عمر بن عبدالله أن من أساليب عتب الأصدقاء وتذكيرهم بحق أغمضوا عنه هجرهم من غير جفاء، وصرف القدم عن زيارتهم لا عن ملل، ولم يشأ منصب الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن خلدون عن مقر السلطان زلةٌ، جرَّه إليها تعاظمه، وقلة وفائه بما يستحق مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع، فبدلاً من أن يرعى الوزير مقام الصداقة، ويجعله أرفع مكاناً، وأقوى سلطاناً من مقام الرياسة، أخذته نخوة السلطة، وقابل هجر العتاب والإدلال بهجر الجفاء والتقاطع.

ولما رأى ابن خلدون منه التنكر، والإصرار على الإعراض عنه، استأذنه في العود إلى أفريقية، فلم يجزله ذلك، وشدَّد في منعه، حتى دخل عليه يوم عيد الفطر، وخاطبه بقصيدة يقول في طالعها:

هنيئاً لعيد لا عراه قبول   وبشرى لعيد أنت فيه منيل

فحلت هذه القصيدة عقدة من إبائه، وأذن له في السفر، على شرط أن لا يتخذ سبيله إلى «تلمسان»؛ كراهة أن يتصل بصاحبها أبي حمو، ويشتد به أزر دولته.

*** رحلة ابن خلدون إلى الأندلس:**

احتمل ابن خلدون هذا الشرط، وولىَّ وجهه شطر الأندلس وافداً على السلطان ابن الأحمر بغرناطة. ولما بات بمقربة منها، وافته من وزيرها لسان الدين بن الخطيب رسالة يهنئه فيها بالقدوم، ويعبرٌ بها عن شدة ابتهاجه للقياه، ووضع في صدر الرسالة أبياتاً ـ على سنة من يجيد صناعتي الشعر والنثر ـ، وهي:

على الطائر الميمون والرحب والسهل ... حللت حلولَ الغيثِ في البلد المحْلِ
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطةٌ ... تُنَسي اغتباطي بالشبيبة والأهلِ

*** إرساله سفيراً إلى ملك الإسبان:**

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الأحمر منزلة الاحتفاء والإنعام، وندبه للسفارة بينه وبين ملك الإسبان، فعرف الملك قيمته، وأعجب بكماله ومقدرته، حتى دعاه إلى الإقامة معه بدار ملكه «إشبيلية»، ملتزماً له بأن يرد عليه ما كان لسلفه من أملاك، فرفض ابن خلدون هذه الدعوة، ولم يكن ممن يشغفه المال حباً، فيؤثره على المقام بين أمته التي يشرف بشرفها، وينحط شأنه بانحطاط سمعتها.

*** تنكر وزير الأندلس له:**

حاز ابن خلدون لدى ابن الأحمر رعاية ضافية، فجأش الحسد في نفوس بعض معاديه، وطفقوا يُسرون لابن الخطيب ما يزلزل الصداقة بينه وبين ابن خلدون، حتى اغبرَّ صدره، وبدا عليه انقباض أحسَّ به ابن خلدون، فجعل وجه البلاد في عينيه قاتماً، ولم يسعه بعد تنكر ابن الخطيب ـ وهو

القابض على مقاليد الدولة ـ إلا أن يعتزم على الرحلة، واتفق أن وافته كتب من أبي عبدالله صاحب «بجاية» يستدعيه للقدوم عليه، فاتخذها ذريعة لاستئذان السلطان في الانصراف إلى أفريقية دون أن يطلعه على ما كان بينه وبين ابن الخطيب، فامتعض في مبدأ الأمر ضَناً بفراقه، ثم ادكر أن للحنين إلى الوطن حكماً لا يغالب، فأذن له بالظعن، وأصدر في تشييعه مرسوماً من إملاء ابن الخطيب، يشهد له فيه برفعة القدر، واستقامة السيرة، والتحقيق في العلم، ويوصي قواد الدولة وأعوانها برعايته وإسعافه في كل حال.

*** سفره الثاني إلى بجاية:**

سافر إلى «بجاية» سنة ٧٦٦، وأقيمت له يوم مقدمه حفله مشهودة، فأركب السلطان خاصته لاستقباله، وهرع إليه أهل البلد بنفوس متعطشة إلى لقائه، وانهالوا يمسحون أعطافه، ويلثمون يده. فاجتمع له في هذا الاحتفال إقبال الدولة، وانعطاف الأمة، وهما لا يجتمعان لشخص بانتظام إلا حيث تكون الدولة رشيدة، وإذا كانت الدولة قد تقبل على غير عظيم، فإن الأمة لا تخلع عطفها وإجلالها إلا على من تقدر عظمته، وتثق بإخلاصه.

*** ولايته الحجابة لسلطان «بجاية»:**

تقلد ليوم خلا من قدومه منصب الحجابة، وهي لدى دول المغرب: الاستقلال بإدارة شؤون الملك، والانفراد بالوساطة بين السلطان وبين أهل دولته. بيد أنه استلم زمام السياسة بعد أن نشأت بين السلطان أبي عبدالله وابن عمه أبي العباس صاحب «قسنطينة» فتنة نفدت التدابير دون إطفائها، وما برحت تتأجج إلى أن كانت عاقبتها قتل أبي عبدالله، واستيلاء أبي العباس على «بجاية».

خرج ابن خلدون باسطاً يد الطاعة إلى أبي العباس، ولقي منه احتفاء وإنعاماً، وسرعان ما أنكفأت عقارب السعاية به تدب حول السلطان، فلم ينشب أن استأذنه في الانصراف، فأجاب طلبه بعد تمنع، وارتحل حتى عرَّج على «بسكرة»؛ لصحبة كانت بينه وبين أميرها أحمد بن يوسف بن مزني.

*** انصرافه إلى العلم:**

وما كان يمتحن به ويقاسيه من مشاكسة المنافسين له في مقاعد الرياسة، ونصبهم حبائل السعاية به، ثم تنكر السلطان له بعد الرعاية والإقبال، صرفَ قلبه عن التعلق بأسباب السياسة، وجعله يفرغ همته في تحقيق العلوم ودراستها.

ومن أجل هذا قعد عن السفر إلي أبي حمو صاحب «تلمسان» حين استدعاه ليقلده الحجابة وكتابة العلامة، ووجه إليه أخاه يحيى ليقوم بعمل هذه الوظيفة مكانه.

*** المراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب:**

بعث إليه الوزير ابن الخطيب من «غرناطة» برسائل يشكو فيها مضض النوى، ويتلهف على عهد اللقاء. وقلوب الأصدقاء قلَّما تتصدع بحزازات الوشاية، وتعود إلى عنفوان ودها الصميم، ولكن الرقة الدافقة على ذوق ابن الخطيب، والأدب المنسجم في مزاج خلقه الرصين، ذهبا بأثر ما سعى به إليه قوم لا يفقهون، ونهضا به إلى تأكيد صداقة انتظمت بينه وبين رجل يدانيه علماً وأدباً، ويضاهيه في طرق التفكير، والعمل لرقي نظام الاجتماع.

وإذا كانت الرسائل مثالاً لمنهج الرجلين في المحاورة ساعات اللقاء، فإن هذه المراسلة تنبئك أن المجالس التي كانت تعقد بين هذين الوزيرين

الخطيرين لم تكن مضمار علم وأدب فقط، بل كانت ممتعة بالنظر في الشؤون السياسية الداخلية والخارجية، فقد أتى ابن الخطيب في بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغرناطة، وألم فيها بأنباء عن دولة الإسبان في إشبيلية. وكذلك تجد ابن خلدون تعرض في الجواب عن تلك الكتب لحوادث دول شتى: فنسق فيها قسطاً من الحديث عن شؤون دول: تونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، والحجاز، ومصر.

ولو أن علماء الإسلام أخذوا في هذا السبيل أينما كانوا، ومدوا جانباً من عنايتهم إلى الاطلاع على تصاريف الدول ومجاري سياستها، لبلغوا منتهى السؤدد، وبرئوا من تبعة وقوع الشعوب الإسلامية في هذا البلاء المبين.

*** مساعيه السياسية وهو في بسكرة:**

أقام ابن خلدون في «بسكرة» مقبلاً على دراسة العلم، ولم ينكث يده مع ذلك من التدخل في شؤون الدولة، فكان يشايع أبا حمو صاحب «تلمسان» حين نهض يجلب بخيله ورجله على «بجاية»، فكان وسيلة إلى توثيق عرا الصلة بينه وبين السلطان أبي إسحاق صاحب «تونس». وحمل بعض القبائل على مناصرته حتى سار إليه بطائفة من قبيل «الذواودة»، والتقى به في البطحاء، ثم قفل معه راجعاً إلى تلمسان، إذ بلغ أبا حمو أن السلطان عبد العزيز صاحب «المغرب الأقصى» يتحفز للوثوب على «تلمسان». ولما اقتربت ساعة استيلائه عليها، وأخذ أبو حمو في أهبة الانجلاء عنها إلى الصحراء، اعتزم ابن خلدون على الارتحال إلى الأندلس، وحمله أبو حمو رسالة إلى ابن الأحمر صاحب «غرناطة»، فاتصل نبأ سفره بالسلطان عبد العزيز، ونمى إليه أنه يحمل وديعة إلى ابن الأحمر، فأنفذ إليه سرية اعترضت سبيله، فلم تلق عنده ما يحقق هذه

التهمـة، وانقلبت به إلى السـلطان، فلقيه حوالي تلمسـان، فقضى ليلته في اعتقال، وفي الغد أطلق سبيله، فانصرف إلى رباط الشيخ أبي مدين، ونزل بجواره على قصد التفرغ للعلم، ونشرِ درره الشائقة بين يدي طلابه.

*** استدعاؤه إلى فاس:**

ولم يزل متمتعاً بحياة علمية خالصة، حتى استدعاه السلطان عبد العزيز، وأوعز إليه في الخروج إلى بلاد «رياح»؛ ليجمعهم على طاعته ومناصرته، فانبعث يعمل في هذا السبيل بكلمة نافذة، ودعاية ناجحة، إلى أن قضى المأرب، وبلغ الغاية المنشودة، وكان يسعى إلى هذه المهمة السياسية وهو مقيم ببسكره في جوار أميرها أحمد بن يوسف بن مزني الذي هو صاحب زمام رياح، وما راع ابن خلدون إلا أن أخذ حساده ينفثون سموم الوشاية في أذن أحمد بن مزني، فهاجوا غيرته، وأوغروا صدره حتى تنفس بالشكوى منه إلى صاحب شورى السلطان، وترمار بن عريف، ورفع صاحب الشورى هذه الشكوى إلى السلطان، فما كان من نظره إلا أن استدعى ابن خلدون إلى حاضرة «فاس»، فخرج بأهله وولده.

ولقيه في الطريق نعي السلطان، وتولية ابنه الصبي أبي بكر السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي، فدخل «فاس»، وكان له مع الوزير سابق صحبة، فأدرَّ عليه من معصرات بره وكرامته فوق ما يحتسب، وظل عاطفاً على التدريس، صارفاً همته إلى الوجهة العلمية إلى أن ظهر السلطان أحمد ابن أبي سالم على الوزير أبي بكر بن غازي، واجتذب مقاليد الأمر من يده، ولم يستقر به الحال حتى قام وزيره محمد بن عثمان يدخل عليه الريبة من جانب ابن خلدون، ويغريه بالقبض عليه.

وما هذا الوزير بأول من ازدهت به الرياسة، وتطوحت به في غرور حتى عمي عليه أن لأعاظم الرجال كابن خلدون تاريخاً باقياً، وصحائف لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من مجاملة أهل عصره له، أو إساءتهم إلا أحصتها.

*** عودته إلى الأندلس سنة ٧٧٦:**

قبض عليه السلطان ابن أبي سالم، وسرعان ما نهض إلى خلاصه الأمير عبد الرحمن الذي شارك السلطان في حرب الوزير أبي غازي، واتفق معه على أن يستقل بولاية «مراكش» وأعمالها، ولم يطمئن به المقام بعد أن رأى من تنكر السلطان وسوء طوية وزيره ما رأى، فابتغى الوسيلة إلى إذن السلطان له الانصراف إلى الأندلس؛ ليتفرغ للعلم ومدارسته في ظل دولة ابن الأحمر الذي أولاه في رحلته الأولى سابغ الكرامة والإنعام، ولم يظفر بالجواز إلا بعد تسويف، وعلى رغم من وزيره ورجال دولته.

دخل الأندلس سنة ٧٧٦، فجرى السلطان على عادته من بسط يد الإكرام، وإنزاله منزلة الاحتفاء والرعاية إلى أن وفد على «غرناطة» مسعود ابن ماسي من حاضرة «فاس»، وأبلغ السلطان بإغراء من رجال دولتها أن ابن خلدون كان يبذل مساعيه وجاهه في خلاص لسان الدين بن الخطيب[1]،

---

(١) كان لسان الدين بن الخطيب ـ بفضل ماله من التبحر في العلم والأدب، والخبرة بمذاهب السياسة ـ قبض على زمام دولة ابن الأحمر، وانفرد بالتصرف في شؤونها، فشجيت به بطانة السلطان وحاشيته، وانسابوا إلى السعاية به من كل حدب، حتى أحس بأنها أخذت من السلطان مأخذ القبول، فاحتال للتخلص من الأندلس، والتجأ إلى السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى، وبقي في ظل رعايته، ثم في حماية الوزير أبي بكر بن غازي من بعده. ولما استولى أحمد بن أبي سالم=

فانقلب عطف السلطان عليه جفاء، وأنسه به وحشة، وأجلاه إلى «العدوة» من بلاد المغرب الأقصى.

وموضع العبرة في هذه الواقعة: أنك تقارن بين عودتيه من الأندلس، فتجده في المرة الأولى قفل من «غرناطة» والسلطان يبسط له يد المجاملة، ويودعه بقلب يأسف لفراقه، ثم هو متوجه نحو «بجاية»، والدولة متأهبة لاستقباله بأجمل ما يتصور من مظاهر الاحتفاء. وتراه في هذه المرة انصرف عنها والسلطان يكره إقامته، وتطوى عنه بساط أنسه، خرج وهو لا يدري أين يلقي عصا التسيار: هذه دولة الأندلس تنفيه من أرضها، وتلك دولة المغرب الأقصى تلحظه بعين الحنق، وترمي من ورائه بسهام الكيد والأذى، وهذا أبو حمو صاحب «تلمسان» لم يزل ينقم عليه مشايعته للسلطان عبد العزيز، وسعيه في صرف وجوه العرب عنه يوم كان طريداً في الصحراء. بيد أن أبا حمو كان على روية لا يفوتها أن الأخذ في معاملة رجل خطير كابن خلدون بالرفق والأناة إنما توضع في حساب الحسنات التي ينوه بها التاريخ، ويرتقي بها شأن دولته، فسمح له بدخول «تلمسان»، فجاءها وقد ذاق من صروف السياسة عذاب الهون، فما كان إلا أن تجرد للقراءة، ولم يشغل وقته بسوى المذاكرة في العلم ودراسته.

وقد يكون انحراف الدولة عن النابغة، أو اضطهادها له، أشد داعية

= على حاضرة فاس حسبما قصصناه في المحاضرة، وكان استيلاؤه عليها بمساعدة وموالاة من السلطان ابن الأحمر، قام سليمان بن داود يغري السلطان بالقبض عليه، فأودعوه السجن، وائتمروا على قتله بدعوى أنه وقعت له كلمات في كتاب «المحبة» تنطق بزندقته. ثم أوعز سليمان بن داود إلى بعض الأوغاد بقتله، فهجموا عليه ليلاً، وقتلوه خنقاً في محبسه.

إلى بذله كل ما يملك من الجد والألمعية في توسيع دائرة معارفه، أو الحذق في صناعة التأليف أو الاستنباط؛ فإن الكدر الذي قد يثيره تغابيها عن مكانه، أو بخسها من قيمته إنما يكشفه ارتياح النفس وتمتعها باستطلاع حقائق العلوم التي هي أصفى لذة، وأبقى سؤدداً من نيل الحظوة، والقرب من مجالس الأمراء.

*** تصنيف ابن خلدون تاريخه ومقدمته:**

ما برح ابن خلدون منقطعاً لبثِّ العلم، حتى بدا لأبي حمو أن يبعثه سفيراً إلى «الذواودة»؛ ليراوضهم إلى طاعته، ويجمعهم على ولائه، فلبى طلبه في الظاهر، وخرج وهو يسر في نفسه أن لا يعمل لهذا السبيل بعلَّة أنه أصبح يعزُّ عليه بذلُ شيء من أوقاته في غير الوجهة العلمية، ولعله سئم التدخل في السياسة التي قد تلتوي به مع أهواء الأمراء، وتحمله على أن يسعى في استنجاد القبيلة لمن كان يغريها عليه.

ولما وصل إلى البطحاء، ولى وجهه عن ناحية الذواودة جانباً، وثنى عنانه إلى أولاد عريف، فأنزلوه بقلعة أولاد سلامة، وأقام بينهم أربع سنين في جو هادئ، وبيئة لا تجيش فيها مراجل الحسد، ولا تنفث فيها الوشاية سماً ناقعاً. وفي هذه السنين ـ التي كانت مهبط السكينة وصفاء الفكر وارتياح الضمير ـ شرع في تأليف «تاريخه» الفائق، ولذلك الحين أتم في «مقدمته» على نسجها الحكيم، وتحقيقها البديع.

*** عودته إلى وطنه:**

سلّ يده من كل شاغل، وألقم فكره ثدي الاستنتاج والتفقه في المقاصد العلمية والشؤون العمرانية، حتى بلغ في مجالها شأواً لا يشق غباره. فتاقت

نفسه إلى زيادة التوغل في أسرار العلم، والاستفادة من كتب لا تنالها الأيدي إلا في الحواضر، فراسل صاحب تونس أبا العباس بالعودة إلى تونس التي هي مسقط رأسه، ومسحب ذيل شبابه، ومجرى جياد أنسه، فما تريث أن طلع عليه جواب السلطان يأذن له بالقدوم، ويحثُّه عليه، فانبرى يطوي الفيافي حتى أوى إلى ظل عنايته، وأنزله منزلة المغتبط بسابقات عزه ومظاهر كرامته.

ظن ابن خلدون ـ مذ حطَّ رحله بين قومه، وسحب رداء العز في وطنه ـ أن الزمان صافحه بيد المصافاة، وأن الحوادث أصبحت تهاب أن تغشى ساحته، فإذا تقريب السلطان له، واستخلاصه جليساً يضرم في قلوب فريق من الناس نار الغيرة والحسد، فلم يتمالكوا أن باتوا ينصبون له حبائل الوشاية، يهمسون في أذن السلطان بما يوغر صدره عليه، ومما تعلقوا به في أسباب الكيد به: تخليه عن صوغ الشعر في مديح السلطان، وزعموا لديه أنه لم يعن بمديحه كما عني بمديح سلاطين المغرب والأندلس؛ استخفافاً بمقامه، وكفراناً لنعمته.

وقد ضلَّ هؤلاء عن سواء السبيل: فإن العالم الأديب قد يهفو به نزق الشباب، أو ينساق بحكم الضرورة إلى مديح بعض الرؤساء، حتى إذا بلغ في العلم أشده، وخلع عليه التقدم في السن حلة السكينة والوقار، عافت نفسه ذلك الفن المزري من الشعر، وجمدت قريحته دون أن تنطف فيه بقطرة. فيجب على صاحب الدولة الرشيدة أن يكون على همة أسمى من أن تتشوف إلى سفاسف الأمور، وأطهر من أن ترضى للذين أوتوا الحكمة أن يلقوا بأنفسهم في حضيض الملق والاستعطاف، بل الأمجد لذكره، والأدعى لحمده: أن يكون إكرام العلماء في نظره حقاً تقتضيه العلم بنفسها.

*** تقديم تاريخه إلى صاحب تونس:**

فاجأه صديق له ـ كان أحد بطانة أولئك السعاة ـ بما يكيدونه به تحت ستار، وكان قد اعتزم على أن يقدم للسلطان نسخة مما كمل من «تاريخه»، فاتتهز الفرصة، وأنشده ساعة إهدائه الكتاب قصيدة أمتعها بذكر سيره وفتوحاته، ونسج في ذيلها الاعتذار عن انتحال الشعر بأسلوب بليغ. ويقول في هذا الاعتذار:

وإليكها مني على خجل بها ... عذراء قد حليت بكل نفيسِ
لولا عنايتك التي أوليتني ... ما كنت أعني بعدها بطروسِ
والله ما أبقت ممارسة النوى ... مني سوى رسم أمرٍّ دريس
أضنى الزمان عليَّ في الأدب الذي ... دارسته بمجامع ودروس
فسطا على فرعي وروَّع مأمني ... واجتث من روح النشاط غروسي
ورضاك رحمتي التي أعتدُّها ... تُحيي مُنى نفسي وتُذهب بوسي

*** ابن خلدون في مصر:**

وما برحوا يركبون في السعاية به كل فن، حتى شاهد أثرها في معاملة السلطان له، فرام التخلص من مثار هذه الفتنة، وابتغى الوسيلة إلى ذلك باستئذان السطان في السفر لأداء فريضة الحج، وقدم الإسكندرية لمضيٍّ عشر ليال من جلوس الملك الظاهر على عرش الملك، ثم انتقل إلى القاهرة، وتصدى للتدريس بالجامع الأزهر، واتصل بالسلطان، فأكرم مثواه، وأعاد ليل غربته ووحشته صباح أنس وطمأنينة، وأولاه وظيفة التدريس بمدرسة القمحة، ثم قلده خطة قضاء المالكية على وفق النظام المتبع لذلك العهد من إقامة قضاة على عدد المذاهب الأربعة، يلقب كل واحد منهم بقاضي

القضاة، فتحرى بهذه الخطة صراطاً سوياً، ولم يدخر وسعاً في العمل على إصلاحها، وتجديد ما درس من معالمها، ولم تألف العامة الصرامة في إقامة الحق على وجهه الصريح، ولم يعتد ذوو الجاه والشوكة من رجال الدولة إغلاق باب الشفاعة والتوسل في وجوههم، فتعاقد الفريقان على التظلم منه، والتهويش عليه لدى السلطان؛ بدعوى أنه غير خبير بالتقاليد المعبر عنها بالمصطلح، وانضم إلى هذه المحنة نكبته في أهله وولده إذ أبحروا من تونس ليلتحقوا به، فغشيتهم ريح عاصف، وهلكوا في البحر غرقاً.

وقف السلطان تجاه تلك الشكوى موقف الحكمة، فجمع بين الحزم في السياسة، وكرم الهمة، ففصله عن الخطة؛ تهدئة لثائرة الجمهور، واستمر على مواصلته بالرعاية والإنعام؛ وفاء بحق العلم، واقتناصاً لمفاخر يزدهي بها وجه تاريخه المجيد.

*** ابن خلدون والوزير ابن زمرك:**

وبعد أن قضى ثلاث سنين عاكفاً على التدريس والتحرير، خرج لقضاء فريضة الحج سنة ٧٨٩، وقفل راجعاً إلى القاهرة، واتصل حين بلغ الينبع بكتاب يحتوي على شعر ونثر راسله به أبو عبدالله بن زمرك وزير السلطان ابن الأحمر صاحب «غرناطة»، ولجودة نظمه، وصفاء ديباجته بحيث يسوغ لنقاد الأدب أن يضعوه بالمكان الأسمى من الشعر، ويقضوا له بالسبق في حلبة البلاغة، رأينا من اللائق بهذه المحاضرة أن نحلي جيدها بطوق فرائده، ومما يقول في أوائل هذه القصيدة:

ويازاجري الأظعان وهي ضوامرٌ ... دعوها ترد هيماً عطاشاً على نجدِ

ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصَّبا ... فإن زفير الشوق من مثلها بعدي

براها الهوى بري القـداح وحطهـا حزون على صفح من القفـر ممتـدِّ
عجبت لها أنّـي تجـاذبني الهـوى وما شوقها شوقي ولا وجدُها وجـدي
لـئن شـاقها بـين العـذيب وبـارقٍ ميـاه بفـيء الظـل للبـان والرنـد
فمـا شـاقني إلا بـدور خـدودها وقد لِحْن يوم النفر في قُضُب مُلْدِ
وكم صارمٍ قد سل من لحظ أحورٍ وكم ذابلٍ قد هـز فـي نـاعم القـدِّ
خذوا الحذر من سكان رامة إنهـا ضعيفات كسر اللحظ تفتك بالأُسد

واسترسل في هذا الطرز البديع والنسيب الساحر حتى تخلص إلى خطاب ابن خلدون بقوله:

إليـك ـ أبـا زيـد ـ شـكاة رفعتهـا وما أنت من عمرو لـديَّ ولا زيـدِ
بعيشك خبرني ولا زلـت مفـضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي
فكم ثـار بـي شـوق إليـك مبـرِّح فظلت يد الأشواق تقدح في زنـدي
يقـابلني منـك الـصباح بوجنـة حكى شفقاً فيه الحياء الـذي تبـدي
وتـوهمني الـشمس المنيـرة غـرة بوجهك صان الله وجهك عـن ردِّ
محياك أجلى في العيون مـن الـضحى وذكرك أحلى في الشفاه من الـشهد

واطرد في هذا النسـق المعبر عن الوداد المحض، والشـوق الطافح، وبلوغ الشعر في جودته إلى هذا الحد مما ينبه على رفعة منزلة ابن خلدون في نفس الوزير ابن زمرك؛ إذ الشاعر وإن كان مغلقاً لا يطيل نفس الشعر ويرتقي في إبداعه إلى هذا المظهر إلا عن داعية تزعج قريحته، وتأخذ بمجامع عنايته. وليست الداعية في هذا المقام سوى الإعجاب بكمال ابن خلدون، والحنين إلى حدائق آدابه الزاهرة.

وبعد عودته إلى القاهرة تقلد خطة القضاء مرة ثانية، ثم عزل عنها، وقد تولاها مراراً، وبلغت ولايته لها، ثم تخليه عنها منذ هبط مصر إلى أن توفي نحو ست مرات.

*** ابن خلدون والطاغية تيمورلنك:**

وكان الملك الناصر فرج يسلك في رعايته والإقبال عليه بوجه البر والإنعام مسلك أبيه الملك الظاهر، واستصحبه في خروجه إلى الشام أيام الفتنة التترية، فكان ابن خلدون ممن وقعوا في الأسر، ثم غشي مجلس تيمورلنك في طائفة من الأعيان والقضاة، ومكنه دهاؤه وبراعته في فن السياسة من افتتاح باب المخاطبة، والدخول معه في حديث أصاب مواقع هواه، وأخذ بمجامع لبه، حتى أحرز لديه مكانة الرعاية والإكرام، وحمله الإعجاب بسمو مداركه، وكياسة منطقه على اصطفائه لنفسه، والانقلاب به إلى مقر ملكه؛ ليكون شهاباً ثاقباً في سماء دولته، ودرة وضاءة في سلك علمائه.

ولم تطب نفس ابن خلدون لأن يحط في أهواء هذا الطاغية، ويتطوح في مجاراته أن يدخل في شيعته، ويعمل تحت لوائه، وتلطف في مخادعته باستئذانه في العودة إلى مصر؛ ليجمع أمره، ويضم إليه أهله وكتبه، فنفذت الخدعة، وبلغ أمنيته، فعاد إلى القاهرة، ومدَّ بها طنب الإقامة إلى أن أدركه أجله وهو في منصب القضاء لأربع بقين من رمضان سنة ٨٠٨، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر.

وقبره غير معروف، شأن من يوافيه الحمام في دار غربة، أو يقبره قوم كسدت لديهم بضاعته الغالية، وكلَّت أبصارهم دون الوصول إلى مراميه السامية.

*** أخلاق ابن خلدون:**

يمكن للناظر فيما اقتبسناه من سيرة ابن خلدون أن يشهد له ببعض خصال سامية؛ كعلو الهمة، ورقة الحاشية، وقلة المبالاة باقتحام المصاعب والأخطار، وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتاب «الإحاطة» ببعض أخلاق شريفة إذ قال: «هو حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرياسة. جواد، حسن العشرة، عاكف على رعي خلال الأصالة». ووصفه الوزير أبو عبدالله بن زمرك في قصيدته المومأ إليها آنفاً بشدة الحياء إذ قال:

يقابلني منك الصباح بوجنة	حكى شفقاً فيه الحياء الذي تبدي

وبحسن الخلق إذ قال:

لقيتك في غرب وأنت رئيسه	وبابك للأعلام مجتمع الوفد
فآنست حتى ما شكوت بغربة	وواليت حتى لم أجد مضض الفقد
وعدت لقطري شاكراً ما بلوته	من الخلق المحمود والحسب العدِّ

وقد أثنى عليه الأستاذ إبراهيم الباعوني الشامي، وكانت بينهما مودة وصحبة، ووصفه بعلو الهمة.

وأومأ ابن الخطيب إلى مغمز في خلقه، وهو بعده عن حسن التأني، وشغوفه بثقوب الفهم، وجودة الإدراك، وجعل هذا هو العلة في تحامل رجال الدولة عليه، وانطلاق ألسنتهم في السعاية به لدى السلطان.

ولمزه ابن حجر في كتاب «رفع الإصر» بخلق كبير، والازدراء بمقام غيره.

وذكر في شواهد هذا: أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء، فلم يقم لأحد منهم، واعتذر لمن عاتبه على ذلك. ومن تقصى أخبار النوابغ من أهل العلم والأدب، وجد أكثرهم يتطوح في الاحتفاظ بالمظهر اللائق بعظمته إلى الحال الذي يعده علم الأخلاق في قبيل الكبر والخيلاء.

وقذفه ابن حجر بخلق الفظاظة، وجفاء الطبع أيام كان قاضياً، وحكى عنه: أنه كان يعزر الخصوم بالصفع - ويسميه: الزج -، فإذا غضب على إنسان، قال: زُجُّوه، . فيصفع حتى تحمرَّ رقبته.

وتجاوز ابن حجر في التشنيع عليه، حتى رماه بارتكاب ما لا يحل لنا الأدب الجميل إيراده في هذه المحاضرة، فإلى الله إيابهُما، وعليه حسابهما. ومن قرأ ما كتبه ابن حجر في ترجمة ابن خلدون، وجدها منسوجة على قصد الحط من شأنه، وكتم شيء من فضله، فلا يبعد أن يدخل في عبارته غلو، أو يتساهل في النقل عمن كان بينه وبين المترجَم له منافسة وتحاسد.

*** مكانته في العلم:**

أنبتت المعاهد العلمية الإسلامية من فحول العلماء رجالاً لا تحيط بهم أقلام الحاسبين، ولكن الرجال الذين يتسنمون في العلم الذروة القصوى، وتنفجر قرائحهم بمدارك فائقة، فيخرجوها للناس في أسلوبها الحكيم، ليسوا بكثير، ومن هذه الطائفة العزيزة المثال: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون.

كان بعيد الشأو في العلوم الشرعية والعربية، خبيراً بالعلوم النظرية، ضليعاً في الفنون الأدبية، ويشهد له بالرسوخ في العلم: الكتب التي درسها؛ مثل: «تهذيب البرادعي» في الفقه، و«مختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي»،

وكتاب «الموطأ»، و«صحيح مسلم»، وغيرهما من الأمهات في علم الحديث، وكتاب «التسهيل» لابن مالك في النحو.

وأخذ العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية عن أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الأبلي.

وحسبكم شاهداً على تقدمه في هذه العلوم النقلية والعقلية: مقدمة تاريخه التي أمتع فيها البحث عن حقائق هذه العلوم وفلسفتها على طرز لا يبتكره إلا من مارسها على بينة من أمرها، وتوغل في أحشائها.

وأضاف إلى ثقافة الفكر، والتبريز في الفهم: قوةَ الحفظ، فكان يحفظ القرآن الكريم، والمعلقات، وديوان الحماسة، وشعر حبيب، وقطعة من شعر المتنبي، وسقط الزند، وطائفة من أشعار كتاب «الأغاني»، وغير ذلك من المنظومات العلمية.

*** ابن خلدون والحافظ ابن حجر:**

قصد الشيخ ابن حجر الحط من شأنه في العلم، فقال في «رفع الإصر»: وقد ذكره ابن الخطيب في «تاريخ غرناطة»، ولم يصفه بعلم، وإنما ذكر له تصانيف في الأدب، وشيئاً من نظمه. وقد نقل صاحب «نفح الطيب» ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون في كتاب «الإحاطة»، وهي تتضمن وصفه بالعلم؛ حيث قال: متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور.

وقال ابن حجر: وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه، فلما سألته عن سبب ذلك، ذكر لي أنه بلغه أنه ذكر الحسين ابن علي في «تاريخه»، فقال: قتل بسيف جده، قال ابن حجر: ولم توجد

هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن، وكأنه ذكرها في النسخة التي رجع عنها.

والعجب من الحافظ أبي الحسن حين يغض من مقام ابن خلدون لبلاغ مزوّر عنه، ثم من الحافظ ابن حجر حين ينفي ذلك من «تاريخه»، ويرجو أن يكون ذكره في النسخة التي رجع عنها. والحقيقة أن ابن خلدون أورد ذلك في الفصل الذي عقده في ولاية العهد من «المقدمة»، عازياً له إلى القاضي أبي بكر بن العربي المالكي، ومتعقباً له بالرد، ونصه:

«وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا، فقال في كتابه الذي سماه: «بالعواصم والقواصم» ما معناه: أن الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط، حمله عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومَن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!».

ومن مثل هذا يستدل على أن بعض الطاعنين على ذوي الآراء الإصلاحية، قد يؤتون من عدم اطلاعهم على نفس مقالاتهم، واستيفاء النظر في مؤلفاتهم.

ثم قال ابن حجر مستشهداً على ما يدعي من ضعف مكانة ابن خلدون العلمية:

«حتى إن ابن عرفة لما قدم إلى الحج، قال: كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء، عدنا بالضد من ذلك».

غير بعيد صدور هذه المقالة من الشيخ ابن عرفة؛ فإن ابن خلدون لم يكن مملوء الحافظة بتفاصيل علم الفقه؛ بحيث يكون أخصائياً في أحكام نوازله الجزئية، وهذا هو المنظور إليه في أهلية القضاء لذلك العهد. أما أن يكون الرجل مكيناً في علم الأصول، قاتلاً قواعد الفقه خبرة، ذا حذق في

صناعة تطبيق القواعد على ما يعرض من الوقائع ـ وهي المرتبة التي لا يقصر عنها ابن خلدون فيما نعتقد ـ، فلهم أن ينفوا عنه أهلية القضاء، ويطرحوه من حساب من يتقلدها بحق.

ثم أن البون الشاسع الذي كان بين مسلكي الشيخ ابن عرفة وابن خلدون في العلم يقتضي أن يكون بينهما من المنافسة مالا يمنع أحدهما من القدح في مكانة صاحبه، وقد كان بينهما في تونس مجافاة، وادعى ابن خلدون أن لابن عرفة إصبعاً في السعايات التي بلوه بها لدى صاحب الدولة التونسية.

*** مؤلفاته:**

أتى ابن الخطيب في كتاب «الإحاطة» على بعض مؤلفات ابن خلدون، فقال: شرحَ البردةَ شرحاً بديعاً دلَّ به على انفساح ذرعه، وتفنن إدراكه، وغزارة حفظه، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد، وعلق للسلطان ـ يعنى: ابن الأحمر ـ أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق، ولخص «محصل» الإمام فخر الدين الرازي، وألف كتاباً في الحساب، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال.

وقال صاحب «نفح الطيب» بعد نقل ما جاء في «الإحاطة» من التعريف بابن خلدون: هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادىء أمره وأوسطه، فكيف لو رأى «تاريخه الكبير»؟!.

ومما قاله المقريزي في وصف «مقدمة» هذا التاريخ: وإنه لعزيز أن ينال مجتهد مثالها، إن هي إلا زبدة المعارف والعلوم، وبهجة العقول السليمة

والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبئ على أصل كل موجود، بلفظ أبهى من الدر النظيم، وألطف من الماء مر به النسيم.

ورام الشيخ ابن حجر أن يبخس كل أثر له، حتى هذه المقدمة، فقال في كتاب «رفع الإصر» بعد حكاية كلام المقريزي: وما وصفه به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية، فمسلم، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك، فليس الأمر كما قال، إلا في بعض دون بعض، إلا أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن.

وقد نقلت هذه المقدمة إلى لغات أخرى: تركية، وإيطالية، وفرنسية، فكانت أحد الآثار العربية التي شهد بها الغربيون كيف يرتقي الفكر الناشئ في معاهد العلوم الإسلامية حتى يتسنى له أن يبحث في نظم الاجتماع، وطرق الإصلاح، على وجه بديع، وأسلوب حكيم.

ومتى صح أن النابغة لا يبدع في فن من فنون النظر، ويطيل فيه النفس إلى الأمد الأقصى إلا أن يتقدمه سلف يكون كواضع الأساس، أو يحظى بصحبة من ينسج في البحث والمحاورة على منوال ذلك الفن؛ فإنا لم نر من الرجال الذين لقيهم ابن خلدون من يصح أن يكون مساعداً له على هذا المسلك الفلسفي الاجتماعي غير لسان الدين بن الخطيب، ولهذا كان ابن خلدون ينوه بشأنه، ويشيد بذكره أينما حل.

قال الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي ـ فيما رآه صاحب «نفح الطيب» بخطه ـ: وكان ـ يعني: ابن خلدون ـ يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع، وينعقد على استحسانه الإجماع،

وتتقاصر عن إدراكه الأطماع.

* شعره:

يعد ابن خلدون في قبيل الشعراء المجيدين، ولكن انكبابه على مدارسة العلوم، وقلة غدو قريحته ورواحها على النظم، عاقه عن أن يبلغ في إتقان نسجه والإبداع في فنون التخيل مبلغ المشهود لهم بالتفوق في هذه الصناعة.

وقد اعترف هو نفسه بما يجده من استصعاب الشعر عليه، وبعدِ مأخذه منه عندما يحاول نظمه، قال في «مقدمة تاريخه»: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبدالله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر ـ وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة ـ، فقلت له: أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام؛ من القرآن، والحديث، وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً، وإنما أتيت ـ والله أعلم ـ من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية، والقوانين التأليفية، وعدَّدَ جملة من محفوظاته، ثم قال: وامتلأ حفظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة معجباً، ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك!

ولصفاء فطرته، وسلامة ذوقه، قد يدرك شعره مع تلك العلة التي أومأ إليها غاية بعيدة في الإجادة. ومن مُثُله الرائقة: قصيدته التي أنشدها سلطان المغرب ليلة الميلاد النبوي عام ٧٦٣، وافتتحها بقوله:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عَبرتي ونحيبي

وأبين يوم البين ساعة وقفة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيبِ

ومنها:

يا سائق الأظعان تعتسف الفلا	وتواصل الإسآد بالتأويب
متجافياً عن رحل كل مذلل	نشوان من أينٍ ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه	في ملتقاها من صبا وجنوب
إن هام من ظمأ الصبابة صحبه	نهلوا بمورد دمعه المسكوب
أو تعترض مسراهم سدف الدجى	صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
هلا عطفت صدورهن إلى التي	فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤمَّ من أكناف يثرب مأمناً	يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة	تتلو من الآثار كل غريب

ومن أجود شعره وأعلاه مطلعاً في البلاغة: قوله من قصيدة يهنئ بها أبا حمو بعيد الفطر:

هذي الديار فحيهن صباحا	وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها	عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً	أن لا يرين مع البعاد شحاحا
ايه على الحي الجميع وربما	طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

وتعرض الشيخ ابن حجر لشعر ابن خلدون، وقال: إنه لم يكن ماهراً في النظم، وكان يبالغ في كتمانه، مع أنه كان جيداً لنقد الشعر. وعدم مهارته في الشعر مسلم على معنى أنه لم يصل إلى درجة من أفرغوا جهدهم في هذه الصناعة، وأصبحوا لا ترى تراجمهم إلا في طبقات الشعراء. وقد أريناك من شعره مثلاً يشهد بأن له قوة شاعرية فطرية، وهو المثل الأعلى لشعر من

انصرف بهمته إلى التضلع من العلوم النقلية والنظرية، ثم مد يده إلى الشعر على وجه التحلي بفن من فنون الأدب الجميلة.

*** مُثل من فلسفته الاجتماعية:**

لابن خلدون في الاجتماع والسياسة آراء سامية استمدها من مطالعاته الواسعة في التاريخ، ومشاهداته أزمان الرحلة؛ إذ تقلب في أمم، ودخل في أحشاء دول. ولنسق إليكم أمثلة من فلسفته الاجتماعية التي لها مساس بمشروع جمعية أدبية كجمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية:

*** المغلوب مولع بتقليد الغالب:**

يقول ابن خلدون: إن المغلوب «مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده». وعلل هذا بأن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه، إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو بما تغالط به نفسها من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب.

وهذه نظرية صحيحة، وعلتها ظاهرة، وهي مطردة في الأقوام الجاهلة والشعوب التي يلقى حبلها على غاربها، فتأخذ في تقليد الغالب، والتشبه به في الشعار والعادات، وتفرط في ذلك حتى تندمج في بني جنسه، وتفنى في قبيل عنصريته.

فجدير بزعماء الشرق ودعاة إصلاحه اليوم ألا يدعوا النشء منهمكاً في تقليد الأمم الغربية، ويحق عليهم أن يمعنوا النظر في أحوالها ومظاهر مدنيتها، ويميزوا بين ما كان من أسباب رقي حالتها الاجتماعية، وانبساط يدها إلى القبض على أزمَّة السياسة في الشرق، فيحرضوا الشرقيين على اقتباسه،

وإضافته إلى وسائل حضارتهم، وما كان من الأوضاع المنكرة، أو أنه كان ناشئاً عن عادة ولدتها البيئة الخاصة، ضربوا عنه صفحاً، وأنذروا الشرق عاقبة الاقتداء به.

وفحصُ أحوال تلك الأمم، وتمييزُ طيبها من خبيثها يحتاج إلى نظر حكيم، وذوق سليم، فقد يجد الناظر ما قد يكون نافعاً في أوطانهم، ولكن عمله في بلادنا اليوم ضرر محض. ومن أمثلة هذا: إضـراب التلاميـذ عن الدروس احتجاجاً على قضية سياسية، فهذا النوع من الإضراب قد يلتجئ إليه تلاميذ دولة مستقلة حريصة على ترقيتهم في العلوم والفنون، فيكون نافعاً لهم، وذريعة لنجاح مطلبهم، ولكن الدولة الأجنبية لا يسوءها أن ينقطع أبناؤنا عن التعلم ليالي وأيامـاً، بل يرتاح ضميـرها إلى أن تغلق المدارس أحقاباً؛ حتى يتسنى لها أن تسوقهم كالأنعام إلى حيث تشاء.

*** الأمة المغلوبة يسرع إليها الفناء:**

يقول ابن خلدون: «إن الأمـة إذا غُلبت، وصـارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء». وجعل العلة في هذا ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها، وصارت بالاستعباد آلة لسواها، فيقصر الأمل، ويضعف التناسل، والاعتماد إنما هو عن جدة الأمل، وما يحدث عنه من النشاط في القوة الحيوانية.

وهذه النظرية حادثـة، وعلتها معقولة، فيتحتم على زعماء الشـعوب المغلوبة للأجنبي أن يعالجوا هذا الداء القاتل للأمم الجاهلة بما يبثونه فيها من أمل الخلاص، ويضربوا لها الأمثال بالأمم التي تخلصت من سلطة الغريب؛ مثل: اليونان، وبلغاريا، ورومانيا، وأمريكا، ويعلموها أن وسيلة النجاة منافسة

الغالب في أسباب القوة من المال والعلم والاتحاد، ويربُّوها على العظمة وإباءة الضيم واستصغار العظائم؛ فإنها تعود إلى حياة وقوة تصارع بها حاكمها الغاصب، وإن كانت فئة قليلة، وبلغت جنود خصمها من الكثرة ما لا يخطر على البال.

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة إن الذبابة أدمت مقلة الأسد

*** العرب والسياسة:**

عقد ابن خلدون في «مقدمة تاريخه» فصلاً ذهب فيه إلى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك. وتدور هذه المقالة على ألسنة بعض من يريد الحطَّ من شأن العرب، ولاسيما الأعاجم الذين يريدون استعمار بلادهم، وإدخالهم تحت سيطرتهم، ويسوقونها كالشاهد على أن العرب لا يصلحون لأن يديروا سياستهم بيد مستقلة، وينقلها بعض العرب أو أنصارهم، فيرمي ابن خلدون بسفه الرأي في هذه القضية، ويحكم على تخطئته بحجة سداد نظرهم في السياسة، واتساع فتوحاتهم أيام الخلفاء الراشدين، ومن اقتفى أثرهم من دهاة الأمراء وأبطال الرجال.

والتحقيق أن ابن خلدون إنما يقصد العرب الذين يعيشون بالبادية، وقبل أن يخرجوا من ظلمات جاهليتهم إلى الاهتداء بمعالم الإسلام. وعباراته صريحة في هذا الصدد. ومما قال في هذا القصد: «وإنما يصيرون إلى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية». ثم قال: «واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم، وقوي سلطانهم».

خرجت يوماً من «برلين» على سكة الحديد إلى بعض نواحيها، وكان في رفقتي اثنان من مستشرقي الألمان. وبعد قليل أقبل عليَّ أحدهما، وقال لي: أليس هكذا يقول ابن خلدون: إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك؟ فقلت له: إنما يريد العرب في عصر جاهليتهم، وأما بعد أن تحلوا بهدي الإسلام، فقد أصبحوا كغيرهم من الأمم: يجيدون النظر في السياسة، ويديرون زمامها على بينة. فلاح على وجهه الامتعاض من هذا الجواب. وليست ألمانيا أقل شرهاً وحرصاً على استعباد الشعوب الشرقية من بقية دول الاستعمار.

ويوضح ما قاله ابن خلدون من قلة خبرة العرب أيام جاهليتهم بمذاهب السياسة: أنهم كانوا مغلوبين لطبيعتين لا ينتظم معهما أمر الملك وإدارة شؤون الجماعة:

إحداهما: الانتصار لمثل الجار والقريب، والصاحب والحليف، وإن كان ظالماً، وكانوا يرون هذه الطبيعة من مقتضيات صحة العهد، وعزة الجانب. والسياسة إنما تقوم على قاعدة المساواة، وحماية الحقوق من أيدي المعتدين عليها، لا فرق بين بعيد وقريب، وعدو وحبيب. ويعتبر هذا بالحكومات الأجنبية، فإنك تجدها تعبث بقاعدة المساواة في البلاد المحتلة، فتستخف بحقوق الوطنيين، وترفع أبناء جنسها عليهم درجات، وهذا أول العلل التي تجعل سياستها منكرة، ووطأتها لا تطاق.

ثانيهما: المسارعة إلى مؤاخذة المسيء والانتقام منه بدافع طبيعة إباية الضيم، والسياسة تقضي باحتمال بعض الأذى، والإغضاء عن كثير من الهفوات.

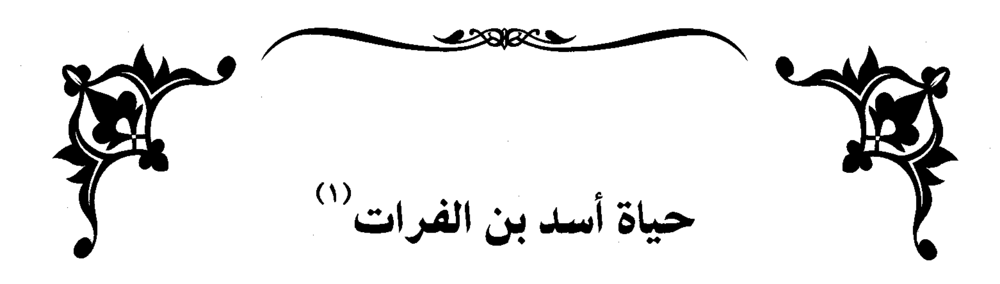
وأقم الوزن بالقسط في الحكومات السائدة، فإنك ترى الحكومة التي هي أطيش حلماً، وأخف يداً إلى إرهاق من تسميهم مجرمين سياسـيين، فتستيقن أنها أقصر عمراً، وأن بغضها في قلب شعبها أحر من جمر الغضا.

وقد حارب الإسلام هاتين الطبيعتين حتى أخرج من العرب موازين قسط وعدالة؛ كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، وجبال حلم وأناة؛ كمعاوية بن أبي سفيان، والمأمون بن هارون الرشيد.

أيها السادة!

هذه كلمات في حيـاة الفيلسـوف التونسـي عبد الرحمن بن خلدون، ألقيناها على مسامعكم رجاء أن يأخذ منها طلاب العلم بالأزهر الشريف عبرة، حتى ترى منهم أوطانهم بعد العودة أمثال ابن خلدون في علمه وتفكيره، وما ذلك على الله بعزيز.





حياة أسد بن الفرات[1]

أيها السادة!

أعرض على حضراتكم آثاراً من سيرة رجل يدخل في سلك العلماء الراسخين، وتقرؤون اسمه في سلك الأبطال الفاتحين، وهو مؤلف «المدونة»، وفاتح صقلية: أسد بن الفرات.

قضى أسد بن الفرات معظم حياته بمدينة القيروان، ولحياته صلة بالعلم، وصلة بالسياسة، فيحسن بنا أن نفتتح المحاضرة بكلمة نأتي بها على موقع القيروان، ونلم فيها بحالته السياسية والعلمية للعهد الذي نشأ وعاش فيه أسد ابن الفرات.

*** القيروان:**

لا يغيب عن حضراتكم أن تونس فتحت أولاً في عهد عثمان بن عفان بسيف عامله على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكانت آخرة هذا الفتح أن لاذ الروم والبربر بطلب الصلح، فصالحهم الفاتحون على مقدار وافر من المال، تسلموه منهم، وولوا عنهم إلى مصر وما وراءها راجعين.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثالث من المجلد الثامن عشر الصادر في رمضان ١٣٦٤.

وبعد أن وقعت الخلافة في يد معاوية بن أبي سفيان، بعث إلى إفريقية[1] جيشاً يقوده معاوية بن أبي حديج الكندي، ففتح منها بلاداً كثيرة، ثم عاد إلى مصر، وخلفه عقبة بن نافع الفهري، فجعل من فاتحة أعماله أن خطط تلك المدينة التي تسمى: «القيروان»، وهي واقعة من مدينة تونس في ناحية الجنوب، تبعد عنها بمسير خمس ساعات في سكة الحديد، وتقدر هذه المسافة في القديم بنحو مئة ميل.

*** الحالة السياسية:**

ظلت القيروان منذ أنشاها عقبة بن نافع عاصمة أفريقية، وظل ولاتها يفدون عليها من قبل الخليفة في الشرق إلى أن اضطرب حبل الأمن، وحل بعض الزعماء فيها وكاء الفتنة، فبعث أبو جعفر المنصور جيشاً على رأسه محمد بن الأشعث سنة ١٤٤هـ، فأخمد الثائرة، وصارت ولاية أفريقية عقب هذا إلى المهلبيين، ومنهم: يزيد بن حاتم الذي مدحه ربيعة الرقي بالشعر المتداول:

لَشتانَ ما بين اليزيدينِ في الندى ... يزيدِ سُليمِ واليزيدِ بنِ حاتمِ

ثم إلى الأغالبة، ومؤسس دولتهم إبراهيم بن الأغلب، وكان إبراهيم هذا قد رغب إلى الخليفة هارون الرشيد في أن يمنحه إمارة أفريقية، فأجاب رغبته، وكتب له عهد الإمارة سنة ١٨٤، فاستقل بشؤون أفريقية الداخلية، وأقام دولة يقال لها: دولة بني الأغلب، وكان يجمع في سياسته بين الحزم والرأفه، ويضيف إلى هذه الخصلة الحميدة علماً وأدباً، فامتدت

---

(١) تطلق إفريقية على ما بين برقة وطنجة، وقد تطلق على القيروان؛ لأنها كانت عاصمة ملك أفريقية.

في أيامه ظلال الأمن، وألقت إليه القبائل بحسن الطاعة حتى توفي سنة ١٩٦، فخلفه ابنه عبيدالله، وذهب في سياسته مذهب الشطط والعسف، وما لبث أن هلك، وصار الأمر لأخيه زيادة الله، فبايعه الأهالي سنة ٢٠١، ثم جاءه التقليد من قبل الخليفة المأمون، وكان زيادة الله فصيح المنطق، مكيناً في العربية وآدابها، وفي عهده تولى أسد بن الفرات قضاء القيروان، وقيادة الجيش الفاتح لصقلية.

فأسد بن الفرات عاش ما بين مدينتي القيروان وتونس أيام تداول سياسة ذلك القطر المهلبيون، ثم الأغالبة، وفي كلتا الدولتين رجال علم وأدب وهمم سامية، وذلك مما ينهض بأمثال أسد في النباهة والذكاء إلى أن يكون من عظماء الرجال الذين يذكرهم التاريخ بتمجيد وإجلال.

*** الحالة العلمية:**

لأهل تونس ـ في العهد الذي نشأ فيه ابن الفرات وما يقرب منه ـ عناية بالعلوم الإسلامية، فكانوا يرحلون إلى بلاد الشرق للأخذ من علمائها، ومن أشهر هؤلاء الراحلين: أبو البقاء عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري؛ فإنه رحل إلى الشرق، وأخذ عن جماعة من التابعين، ثم عاد إلى القيروان، وبث ما عنده من علم، ورحل مرة أخرى إلى العراق، واجتمع بأبي جعفر المنصور، وهو يومئذ الخليفة، وكان قد عرفه أيام رحلته الأولى، وصاحبه في طلب العلم، فعرض عليه الخليفة المقام ببغداد، فأبى، فقلده قضاء القيروان، وتوجه في جيش ابن الأشعث الذي سار لقمع ثورة البربر بأفريقية.

وكان عبد الرحمن هذا في طليعة العلماء الذين نشروا في البلاد التونسية علماً وأدباً، وظهروا بالإقدام على نصيحة ولاة الأمور، ومن آثاره الأدبية:

قوله في أبيات نظمها خطاباً لابنه أنعم حين أخذ في التوجه من العراق إلى القيروان:

ذكـرت القيـروان فهـاج شـوقي ... وأيــن القيــروان مــن العــراق
مــسيرة أشــهر للعيــر نَــصّاً ... وللخيــل المــضمرة العتــاق
فبلــغ أنعمــاً وبنــي أبيــه ... ومــن يرجــو لنـا ولــه التلاقــي
بــأن الله قـــد خلَّـــى ســبيلي ... وجــدَّ بنــا المــسير إلــى فــراق

وهذه الأبيات ـ على سهولة لفظها، وقرب مأخذها ـ تدل على أن لصاحبها قدماً في الأدب راسخة.

ومن دلائل إقدامه على نصيحة أولي الأمر: أنه حين دخل على أبي جعفر المنصور قال له: كيف رأيت ما وراء بابنا؟ قال: رأيت ظلماً فاشياً، وأمراً قبيحاً، قال له أبو جعفر: لعله فيما بَعُد من بابي، قال: بل كلما قربت، استفحل الأمر وغلظ، قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا، وقولك مقبول عندنا؟ قال: رأيت السلطان سوقاً، وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيه، قال له: كأنك كرهت صحبتنا! قال: ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم، ولكني تركت عجوزاً، وإني أحب مطالعتها، فولاه قضاء أفريقية، وتوجه في جيش ابن الأشعث كما قصصنا.

وظهر بعد عبد الرحمن هذا طبقة من أهل العلم راقية، رحلوا إلى الشرق، وأخذوا عن مالك بن أنس؛ كعبدالله بن أبي حسان اليحصبي، وعبدالله بن غانم، وعبدالله بن فروخ، وعلي بن زياد الذي هو أحد أساتذة أسد بن الفرات.

فأسد بن الفرات شب وعاش في بيئة علم واسع، وأدب غزير، وقد

ساعدته هذه البيئة على أن يكون انتفاعه من الرحلة التي تقلبت به في الحجاز والعراق والقاهرة عظيماً سريعاً، وسنقص على حضراتكم شيئاً من أنبائها، وأنباء ما عاد به إلى وطنه من علم وافر نبيل.

*** مولد أسد ونشأته:**

المعروف من نسب أسد أنه أسد بن الفرات بن سنان مولى سليم، وأصله من نيسابور أحد أعمال خراسان، وكان أسد يقول على وجه الاستملاح: أنا أسد، والأسد خير الوحوش، وابن الفرات، والفرات خير المياه، وجدي سنان، والسنان خير السلاح.

ولد أسد ببلد حران من ديار بكر سنة ١٤٢هـ، وكان أبوه الفرات من جند خراسان، فلما بعث أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث لإخماد فتنة البربر بأفريقية، وكان الفرات في الجيش الذي يقوده محمد بن الأشعث، فأخذ ابنه أسداً وقد بلغ من العمر حولين، فنزل بالقيروان، وهي يومئذ عاصمة أفريقية.

بقي أسد بالقيروان نحو خمس سنين، ثم انتقل به أبوه إلى مدينة تونس، وأقام بها سنين توفق فيها أسد إلى طلب العلم، فتلقى من شيوخ أشهرهم: علي بن زياد الذي لقي مالكاً، وأصبح أفقه العلماء بأفريقية.

ولم يقنع أسد بما تلقاه من شيوخ أفريقية، وتاقت نفسه لأن يزداد بسطة في العلم، فأزمع الرحلة إلى الشرق، وكانت الرحلة ولا زالت السبب الأقرب إلى تثقيف العقل، والنبوغ في العلم، متى كان الراحل مجداً غير هازل، نبيهاً غير خامل، ولولا رجال من الأمة يرحلون، فيردون مناهل العلوم ثم يصدرون، لبقي كثير من الأمم في جهلهم، أو على مقدار من العلم لا يرفع

ذكرهم، ولا يقوم بحاجاتهم.

*** رحلته إلى الحجاز:**

غادر أسد بن الفرات تونس سنة ١٧٢، فدخل المدينة وعالمها الذي تضرب إليه أكباد الإبل وقتئذ مالك بن أنس، فلزم مجالسه، وسمع منه كتاب «الموطأ»، وبعد أن فرغ من سماعه، قال لمالك، زودني يا أبا عبدالله، فقال له مالك: حسبك ما للناس.

وكان أصحاب مالك ـ ابن القاسم وغيره ـ يهابون مالكاً، فلا يسألونه أو يناقشونه في العلم إلا بمقدار، ولما رأوا في أسد جرأة، أخذوا يدفعونه إلى سؤال مالك، ويلقنونه ما شاؤوا من المسائل يبتغون أجوبتها، فكانوا إذا أجابه مالك عن مسألة، يقولون له: قل له: لو كان كذا وكذا، كيف يكون الحكم؟ قال أسد: فأقول له، حتى ضاق علي يوماً، وقال لي: «سلسلة بنت سلسلة، إذا كان كذا، كان كذا وكذا، إن أردت هذا، فعليك بالعراق».

وكان الإمام مالك يكره السؤال عن أحكام الحوادث قبل وقوعها؛ ذلك لأن أصول الشريعة محكمة، ومقاصدها واضحة، ووسائل الاستنباط ممهدة، فمتى وقعت الواقعة، وجدت من أئمة الاجتهاد من يفصل لها حكماً موافقاً.

*** انتقاله إلى العراق:**

قصد أسد المسير إلى العراق ليتعلم من علمائه ما لم يكن يعلم، فدخل على مالك مودعاً، وقال له: أوصني. فقال له مالك: «أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة لهذه الأمة».

رحل أسد إلى العراق، فلقي هنالك أصحاب الإمام أبي حنيفة، وكان

يشهد مجالس محمد بن الحسن العامة، ولم يكتف بما كان يستفيده من هذه المجالس حتى اقترح على محمد بن الحسن أن يسمح له بوقت يخصه فيه بالدراسة، فتقبل محمد بن الحسن اقتراحه، وقال له: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل كله وحدك، فتبيت عندي، وأسمعك. قال أسد: فكنت أبيت في سقيفة بيت يسكن هو في علوه، فكان ينزل إلي، ويضع بين يديه قدحاً فيه ماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل، ورآني نعست، ملأ يده ماء، ونضح به على وجهي، فأنتبه؛ فكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه.

صنيع أسد بن الفرات يرينا كيف كان طلاب العلم في الإسلام، فلا نعجب لمن يقص علينا التاريخ أنهم بلغوا في العلم ـ وهم لا يبعدون عن سن العشرين ـ منزلة سامية فائقة.

وصنيع محمد بن الحسن يرينا كيف كان الأساتيذ يحنون على طلاب العلم حنو المرضعات على الفطيم، ويقضون ليلهم ونهارهم في إنارة عقولهم، وتوسيع دائرة معارفهم.

*** انتقاله إلى مصر:**

بعد أن تضلع أسد مما عند علماء العراق من علم، انتقل إلى مصر، وقد ظهر بها وقتئذ أصحاب الإمام مالك: ابن القاسم، وأشهب، وغيرهما، فحضر أسد لأول قدومه مجلس أشهب بن عبد العزيز، فصادف أن بدرت من أشهب كلمة تطاول بها على الإمامين مالكٍ وأبي حنيفةَ، فأخذت أسداً الحميةُ لهما؛ ولم يتمالك أن قال: يا أشهب! فأسكته الطلبة، وقالوا له: ماذا أردت أن تقول له؟ قال: أردت أن أقول له: مثلك ومثلهما مثل رجل

أتى بين بحرين، فبال، فرغى بوله، فقال: هذا بحر ثالث.

وكان ابن القاسم وأشهب يخالفان مالكاً في بعض الفتاوى، غير أن في ابن القاسم أناة، فلا يضم إلى الخلاف قولة جافية، أما أشهب، فكان لا يبالي أن يزيد على الخلاف كلمة يتظاهر فيها باستقلال النظر ما شاء.

ثم اتصل أسد بابن القاسم، وكان يغدو إليه في كل يوم يلقي عليه مسائل ليجيبه عنها بما يرويه عن مالك، أو تقتضيه أصول مذهبه، حتى دوّن ستين كتاباً سماها: الأسدية.

ولما عزم أسد على العودة إلى القيروان، سأله طلاب العلم هنا بمصر أن يسمح لهم باستنساخ ما دونه عن ابن القاسم ـ أعني: الأسدية ـ، فأبى عليهم ذلك، فحسبوا أن هذا من الحقوق التي يتناولها القضاء، فشكوه إلى القاضي، وهو يومئذ عمرو بن مسروق الكندي، فقال لهم: وأي سبيل لكم عليه؟! رجل سأل رجلاً فأجابه، هاهو المسؤول بين أظهركم، فاسألوه كما سأله. ثم إن القاضي رغب إلى أسد في أن يسمح لهم باستنساخ الأسدية، فأجاب طلب القاضي، وسلمها لهم حتى فرغوا من نسخها.

*** عودته إلى القيروان:**

قضى أسد في رحلته نحو عشر سنين، ثم عاد إلى القيروان سنة ١٨١، وانتصب للتدريس، وبث ما كسب من علم، فأقبل عليه الطلاب يجتنون من ثمار رحلته، ويتلقون عنه «الموطأ». وكتاب «الأسدية»، وممن أخذ الأسدية: الإمام سحنون، ثم إن سحنون رحل إلى مصر سنة ١٨٨، وقرأ الأسدية بين يدي ابن القاسم نفسه، وكان ابن القاسم قد رجع في بعض مسائلها، وقررها على غير ما سمع منه أسد بن الفرات، ولما فرغ سحنون من قراءتها، كتب

ابن القاسم رسالة إلى أسد يأمره فيها بأن يصحح «مدونته» على النسخة التي يحملها سحنون، عاد سحنون بالمدونة، ودفع كتاب ابن القاسم إلى أسد، فأبى أسد أن يغير مدونته المسماة: الأسدية على نحو ما سمعها عن ابن القاسم، ولكن مدونة سحنون هي التي انتشرت في الآفاق، وعول عليها الناس في الفتوى، وهي التي تناولها الفقهاء بالشرح والاختصار.

*** مكانته العلمية:**

عرفنا مما سلف أن أسداً تفقه عن علي بن زياد في تونس، ثم رحل وأخذ عن مالك بالمدينة، ثم عن أصحاب أبي حنيفة بالعراق، ثم عن عبد الرحمن ابن القاسم بالقاهرة، وأن مدة رحلته بلغت تسع سنين، وإن تسع سنين يقضيها العالم الذكي في الازدياد من العلم بجد وتلهف، لكفيلة بأن تخرجه للناس نحريراً فائقاً، وبما نال أسد في هذه الرحلة من علم كان يقول مغتبطاً ومعرضاً ببعض معاصريه بالقيروان: «ضربنا في طلب العلم آباط الإبل، واغتربنا في البلاد، ولقينا العلماء، وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه، ووراء منسج أمه، ويريدون بعد ذلك أن يلحقونا».

وتحدث محمد بن الحسن عن أسد في مكة، فوصفه بالدراسة والمناظرة والسماع، وكان قاضي القيروان عبدالله بن غانم يشاوره، ويعجب بعلمه، وقال أبو بكر بن الأبار في «الحلة السِّيراء»: «وكان لأسد بيان وبلاغة، إلا أنه بالعلم أشهر منه بالأدب».

ومما امتاز به أسد عن معاصريه: أنه كان يسرد في مجالسه أقوال أهل العراق، ثم أقوال أهل المدينة، وبهذه الطريقة اتسعت دائرة علم الفقه في تونس، وأصبح طريق النظر في أحكام الشريعة ومداركها مألوفاً ميسراً، وقد

تقدم إلى فتح هذا الباب بالقيروان عبدالله بن فروخ؛ فإنه رحل إلى الشرق، ولقي مالكاً وأبا حنيفة، وكان يعتمد في فقهه على مالك، ويأخذ بطريق النظر والاستدلال، وقد يميل إلى قول أهل العراق حين يستبين له أنه أرجح حجة، وأقوم قيلاً.

*** ولايته القضاء:**

توفي قاضي القيروان عبدالله بن غانم، فأقام زيادة الله مكانه أبا محرز ابن عبدالله الكتاني، ثم إن علي بن حميد وصف لزيادة الله فضل أسد، ومكانته في العلم، وسعى لديه في أن يصرف أبا محرز عن القضاء، ويقلده أسد بن الفرات، فلم يوافق زيادة الله على عزل محرز، ولكنه قلد أسداً القضاء مع أبي محرز سنة ٢٠٤، فكانا يقضيان كل منهما بمكانه؛ بحيث يكون المتداعيان بالخيار.

وفي مدينة تونس لهذا العهد محكمتان: إحداهما تحكم على المذهب المالكي، وأخراهما تحكم على مذهب أبي حنيفة، ويسيران في القضاء على أن الخيار للمدعى عليه، وعباراتهم الخيارية في هذا المعنى: «المطلوب يتوجه حيث شاء».

أما تولية قاضيين لتطرح بينهما القضايا، ويصدرا فيها حكماً واحداً، فقد كان الخليفة المهدي استخلف على القضاء محمد بن علاثة، وعافية بن يزيد، فكانا يقضيان معاً في مسجد الرصافة.

*** شجاعته الأدبية:**

كان أسد على شاكلة العلماء الذين يصغر في أعينهم أهل الدنيا، ولا تملك عليهم سطوة السلطان ألسنتهم، فيُدهنوا. دخل أسد وأبو محرز

على منصور الطبري يوم ثار على زيادة الله، واستولى على القيروان، وهما قاضيان، فقال لهما ذلك الثائر في كلام دار بينهما: «اخرجا عني، أما تعلمان أن هذا البائس ـ يعني: زيادة الله ـ ظلم المسلمين؟». أما أبو محرز، فخالطه رعب، وقال له: وظلم اليهودَ والنصارى. وأما أسد، فإنه ملك جأشه، وآثر أن يقول كلمة حق على أن يسكت أمام صولة باطل، فقال له: كنتم أعواناً له قبل هذا الوقت، وأنتم وهو على مثل هذا الحال، ولما وسعنا الوقوف عنه وعنكم، فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده. ولما دافع أسد بهذه الكلمة، صال عليه بعض الجند القائمين على رأس الثائر، ثم انصرف القاضيان وهما يتوقعان بطشة الثائر الغشوم، ولكن الله صرف قلبه عنهما، فلم يمسهما بأذى.

*** فتحه صقلية**[1]:

صقلية: جزيرة في البحر المتوسط، لا يفصلها عن أوربا الإيطالية إلا مضيق مسينا، وهي التي تسمى: «سيسيليا».

أما سبب فتحها، فهو أنه كان بين زيادة الله وصاحب صقلية عقد هدنة، ومما احتواه هذا العقد: أن من وقع إلى صقلية من المسلمين، ورغب أن يرد إلى بلاد الإسلام، كان عليهم أن يردوه إليها، ثم إن صاحب صقلية قصد إلى الإيقاع بزعيم يقال له: (فيمه)، فتخلص هذا الزعيم وأتباعه من صقلية، وهبطوا القيروان يستنجدون بصاحب الدولة زيادة الله بن الأغلب،

---

(١) ضبطها صاحب «القاموس» بكسر الصاد والقاف، وضبطها ابن خلكان بفتحهما، وكذلك يقول ابن هشام اللخمي في «لحن العامة»: ويقولون: سقلية ـ بسين مكسورة ـ، والصواب: صقلية ـ بصاد وقاف مفتوحتين.

ورفعوا إليه أن في أيدي الروم أسارى من المسلمين، لم يمكنوهم من العود إلى أوطانهم، فجمع زيادة الله وجوه الناس، وأحضر أسد بن الفرات، وأبا محرز، وسألهما الرأي فيما يصنع، فأما أبو محرز، فقال: نتأنى في هذا الأمر حتى نكون فيه على بينة، وأما أسد بن الفرات، فقال: نتبين الأمر من رسلهم، فإن شهدوا بأن هناك أسرى، أصبح عقد الهدنة بيننا وبينهم منقوضاً، فقال له ابن محرز: كيف نعتمد على قول الرسل في مثل هذا؟ فقال أسد: بالرسل هادناهم، وبالرسل نجعلهم ناقضين، فارتاح زيادة الله لقول أسد، وسأل الرسل، وكان بين الرسل رجل مسلم، فشهدوا بأن لدى الروم مسلمين محبوسين عن العود إلى أوطانهم.

أمر زيادة الله يومئذ بالخروج إلى صقلية، فعرض أسد نفسه ليخرج في الجيوش المحاربة، فتباطأ زيادة الله عن إجابته، وامتعض أسد من تباطئه حتى قال: قد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية، وما أحوجهم إلى من يجريها لهم بالكتاب والسنة، ولما وثق زيادة الله من صدق عزيمته، أذن له بالخروج على أن يكون أمير الجيش في هذه الغزوة، فكره أسد الإمارة؛ ظناً منه أنه سيتقلدها بدل القضاء، وقال لزيادة الله عندما عزم عليه في ولايتها: أصلح الله الأمير، من بعد القضاء والنظر في حلال الله وحرامه، يعزلني ويوليني الإمارة! فقال له زيادة الله: إني لم أعزلك عن القضاء، بل وليتك الإمارة، وأبقيت لك اسم القضاء، فأنت قاض أمير، فرضي أسد عند ذلك بالإمارة. ويقول المؤرخون: لم تجتمع الإمارة والقضاء لأحد ببلد أفريقية إلا لأسد وحده. وأما في غير أفريقية، فقد اجتمع القضاء وإمارة الجيوش لبعض علماء بغداد والأندلس. قال ابن خلدون: «وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد

في عساكر الصوائف، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس».

أذن زيادة الله بأن تهيأ السفن وتساق إلى مرسى مدينة «سوسة»، وكانت نحواً من مئة سفينة، وجهز جنداً يقدرون بعشرة آلاف رجل، وتسع مئة فارس.

خرج أسد في ربيع سنة ٢١٢ متوجهاً إلى مدينة «سوسة» ليقلع منها إلى صقلية، وكان يوم خروجه من القيروان يوماً مشهوداً، خرج وجوه أهل العلم لتشييعه، وأمر زيادة الله أن لا يبقى أحد من رجال الدولة إلا شيعه، فركب أسد، وسار في محفل عظيم من الناس، ولما رأى حملة الأقلام والسيوف يحتفون به من كل جانب، لم يشأ أن تمر هذه الفرصة دون أن ينوه فيها بفضل العلم، وينبه على ما يلقاه العالمون من خير وعزة، فقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر الناس! ما ولِّي لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكابدوا عليه، واصبروا على شدته؛ فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة».

ركب أسد البحر يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة ٢١٢، وألقى مراسي السفن على مدنية مأزر بلاد صقلية يوم الثلاثاء، وزحف إليه صاحب صقلية (بلاته) في جيوش عظيمة، والتقى الجمعان، فكانت العاقبة أن فشلت جيوش الروم، وارتدت على أعقابها خاسرة، وبث أسد السرايا في كل ناحية، واستولى على عدة حصون حتى ضرب الحصار على «سركوسة»، وفي أثناء

حصاره لهذه المدينة توفاه الله في ربيع الآخر، وقيل: في شعبان سنة ١١٣[1] بجراحات شديدة أصابته في إحدى الوقائع؛ إذ كان أسد يحمل اللواء بيده، ويدعو الناس إلى الإقدام، ثم يخوض بهم مواقع القتال.

قال ابن أبي الفضل ـ وكان فيمن شهد يوم فتح صقلية ـ: «رأيت أسد ابن الفرات وفي يده اللواء، فحملوا عليه، وكانت فينا روعة، فقال للناس (مشيراً إلى جيش العدو): هؤلاء عجم الساحل[2]، هؤلاء عبيدكم، لا تهابوهم، وحمل اللواء، وحمل الناس معه، فانهزم (بلاته)، وأصحابه، فلما انصرف أسد، رأيت والله! الدمَ قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت إبطه».

وكان أسد يرجو من الله ما لا يرجوه الجبناء ضعفاء الإيمان، فكان على ثقة من أنه سيكسر جيش الروم، بلغ من الكثرة ما شاء أن يبلغ، ويدل على هذا أن الزعيم (فيمه) تأهب لأن يقاتل هو والذين معه بجانب جنود الإسلام، فأبى أسد، وقال له: اعتزلنا، فلا حاجة لنا بأن تعينونا. وقال له ولأصحابه: اجعلوا على رؤوسكم سيما تعرفون بها؛ لئلا يتوهم واحد منا أنكم من هؤلاء الموافقين لنا، فيصيبكم بمكروه، فاتخذوا في ذلك اليوم سيماهم حشيشاً يضعونه على رؤوسهم.

ومما يشهد على أن أسداً كان يحمل في صدره قلب البطل الذي لا يرى مرارة الموت إلا في الخوف منه: أن الجيش الإسلامي بُلي بعد نزول

---

(١) ودفن هنالك، وقال ابن خلدون: في قصر بانه. وكتب زيادة الله بفتح صقلية على يد أسد إلى المأمون.

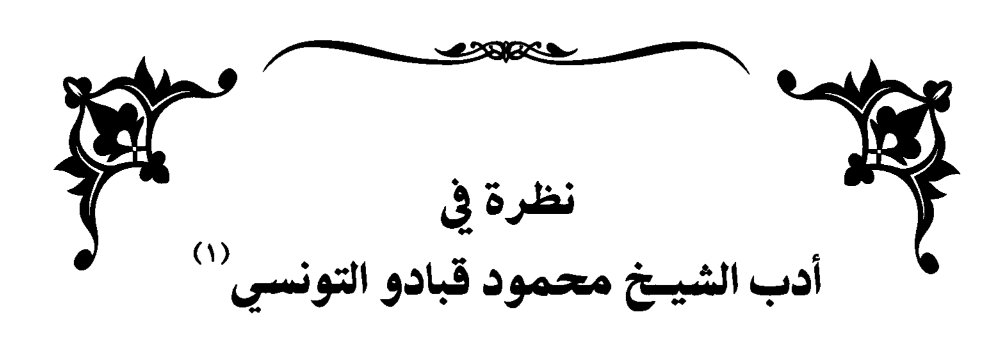
(٢) يريد: أنهم الذين فروا من ساحل أفريقية عند فتحها.

صقلية بمجاعة اضطرته إلى أكل لحوم الخيل، فمشى فريق منهم إلى زعيم يقال له: سحنون بن قادم؛ ليسعى لدى أسد في الرجوع بهم إلى أفريقية، فمضى إلى أسد، وخاطبه في هذا الشأن، فكان جواب أسد أن قال: ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين، وفي المسلمين خير كثير، فاستجرأ عليه ابن قادم، وقال: على أقلِّ من هذا قُتل عثمان بن عفان، فتناوله أسد بالسوط، وخفقه به ثلاثاً أو أربعاً، ثم مضى على عزيمته، فقاتل حتى فتح أكثر البلاد، وأتم فتحها من بعده أفراد يعزمون فيفعلون.

وأنا لا أشك في أن تعاليم الإسلام متى تلقيت بحق، طبعت النفوس على الشجاعتين: الأدبية، والحربية، فلا عجب أن يخرج من بين مجالس مالك بن أنس، ومحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن القاسم بطل تحمل يمناه السيف بعد أن كانت تحمل اليراعة، وتتخضب بحمرة الدم بعد أن كانت تتخضب بسواد المداد، فيعيش عالماً صالحاً، ويموت قائد جيش فاتحاً.

ذلك هو أسد بن الفرات، رحمه الله، ورحم كل من جاهد في سبيل سعادة الأمة وإعلاء شأنها، ما استطاع إلى الجهاد سبيلاً.





نظرة في
أدب الشيـخ محمود قبادو التونسي[1]

أول أديب تونسـي نحا في جانب من شـعره نحو إصـلاح الاجتماع والسياسة، ونبه على وسـائل الرقي، وحذر من الإخلاد إلى الخمول، هو المرحوم الأستاذ محمود قبادو.

تلقى الشيخ محمود قبادو مبادئ علم النحو في تونس، ثم سافر إلى طرابلس الغرب، وبقي بها سنين عرف فيها بجودة الشعر، ثم عاد إلى تونس، وجلس للتلقي عن بعض الشيوخ؛ مثل: الشيخ أبي العباس أحمد ابن الطاهر، وندب لتعليم ابن السيد سليمان كاهية أحد كبار رجال الدولة، ثم ارتحل إلى الآستانة، ونظم يوم خروجه من تونس قصيدة يقول في مطلعها:

أسمعت يومَ البينِ خفـقَ فـؤادي ... أَمْ كنتَ مشغولاً بصوتِ الحادي

ومكث في الآستانة سنين، ورجع إلى تونس في جمادي الثانية ١٢٥٧، وقد أشار في بعض قصائده إلى تلك الرحلة، والعود إلى الوطن، فقال:

رعـى الله أيامـاً لنـا ولياليـاً ... سعينا بها للمجد والدهر مُـسعِدُ

تطـارحني الآمـال وهـي مطيـةٌ ... وتغضي جفون النائبـات وأسـهدُ

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد السابع الصادر في صفر ١٣٥٤ .

ليالي لم أذمم بها شقة النوى ولولا اغترابي كنت أُثني وأَحمدُ

قضيت بأرض الروم منها مآرباً وعدت لأرض كان لي فيه مولدُ

وما عن قِلى ولَّيت عنها ركائبي ولكنها الأوطانُ للحرِّ أَعْوَدُ

طويت لها البيداء بين مَهامهٍ ويممت لجّ البحر والبحر مُزبدُ

وتقلد بعد عودته إلى تونس التدريس بالمدرسة الحربية، وكان له يد في تربية تلاميذها على الآداب الإسلامية، وقيامهم على اللغة العربية.

وعنيت الحكومة لذلك الحين بتعريب كتاب فرنسي في أصول الحرب، وقام الأستاذ قبادو بتهذيب ذلك التعريب، وصدَّره بمقدمة جيدة إنشاء ومعنى.

ثم تولَّى التدريس بجامع الزيتونة، وصار بعد ذلك قاضياً بباردو (قاضي العسكر)، ثم تولى سنة ١٢٨٥ خطة الفتوى، وصار عضواً بالمحكمة الشرعية.

وما زال يقوم بالتدريس في جامع الزيتونة، ويقضي حق الإفتاء بالمحكمة إلى أن أدركه المنون؛ فتوفي ـ رحمه الله ـ في ٣ رجب سنة ١٢٨٨.

وكان الأستاذ سليمَ الصدر، لا يحمل لأحد حقداً، وإذا اغبر صدره من أحد تعرض له بمكروه، فأول معذرة أو كلمة يحاول بها استرضاءه، تذهب بكل ما في نفسه، وقد تحدَّث في شعره عن حاله مع بعض حساده، ودلَّ على أنه كان يقابل سعاياتهم بالإعراض عنها، والاعتماد في دفع شرها على من يده فوق كل يد.

ومما جاء في هذا المعنى قوله:

كم أوغروا من صدور باختلاقهم وغيَّروا من حميم زال إذ زعموا

وأشردوا عن علومي جد مقتبسٍ　　فلــم يكــادوا وردَّ الله كيــدَهم
وكم عفوتُ، وكم حاولت سلمهم　　وما لحرب حسود يرتجى سَـلَمُ
ولــو جــزيتُهم عــن سـيئاتهم　　بمثلهـا لـم أكـن بـالظلم أتَّـسِمُ
لكنني صنتُ نفسي عن مواردهم　　وقلت حسبي فيهم من هو الحكمُ

وإذا كان شِعْرُ الرجل يدل على جانب من أخلاقه وآدابه، لم تلبث أن تشهد للشيخ قبادو عندما تلقي نظرة على ديوانه، بأنه كان ممن يحافظ على حقوق الصداقة، ويغتفر للإخوان عثراتهم، علماً منه بأن الصديق المهذب الذي لا يغفل عن حق الصداقة، أو لا تأخذه جفوة في بعض الأحيان، بعيدُ المنال. ومما قال في بعض قصائده:

أأنكـث حبـل الـود بعـد توافـق　　ولي حيلة في حمل بادرة الصحب

وقال:

إذا ظفرتْ كفّاك يومـاً بـصاحب　　فأودعْه في جفن الرعاية والهُدب
وخذ منه عفو القول والفعل واطَّرحْ　　مِراء ولوماً حـين ينبـو وإذ يُنبـي
وحرره عـن رِقِّ التكـاليف تلقَـهُ　　أخاً مسترَقاً ذا انتداب إلى الحُبِّ

ثم قال:

فلا راحة إن قوبل الذنب بالجفـا　　ولا سؤددٌ إن جوزي الذنبُ بالذنبِ

* **حكمه ومواعظه:**

للأستاذ قبادو حكم سامية ترد في أثناء قصائده؛ كقوله:

وما خسر الإنـسان وجـه سـعادة　　إذا من فنـون العلـم وفّـر سـهمه

وقوله فيها:

لعمري ليس الميت من أودع الثرى ... ولكن مطيق للغنى بان عدمه

وكقوله من قصيدة أخرى:

وفي الناس من عد الهوان تواضعاً ... وعدّ اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقوله من قصيدة أخرى:

هل العز إلا في اطراح المراتب ... وصون المحيا عن سواد المطالب

ومن كدَّرت أطماعُه نهرَ فكره ... طفا فيه من أقذائه كل راسب

وقوله من قصيدة أخرى:

لم تطبع الدنيا على شكل الوفا ... فعلام في قلب الحقائق يطمع

عش ما تشاء بها فإنك ميت ... واحبب بها من شئت فهو مودِّع

فسل الثرى كم من نواصي عفرت ... فيه وكان المسك منها يسطع

وبدورِ تَمٍّ قد هوت لرغامِه ... كانت منازلها الصياصي المُنَّعُ

وقوله في أخرى:

لا أرى الموت غير موت نفوسٍ ... وئدت في مقابر الأبدان

*** شعره الاجتماعي والسياسي:**

يصح للمؤرخ أن يقول: إن أول شعر ظهر في تونس يدعو إلى مجاراة الغربيين في العلوم والفنون والصنائع، وأول شعر كان مظهر الأسف على ما وقع فيه المسلمون من إهمال الاستعداد لخصومهم، وأول شعر يرمي إلى أغراض سياسية عالية، هو شعر الأستاذ محمود قبادو، فانظر إلى قوله في بعض قصائده:

وكل فنـون العلـم للملـك نـافع ... ولا سيما ماساير الملك حكمـه
أرى الملك مثل الفلك تحت رئيسه ... عويزاً إلـى الأعـوان فيمـا يؤمـه
فـــذلك نـــوتي يعـــين بفعلـــه ... وآخـــر خِرِّيـت قُـصاراه علمـه
ومقصده جريُ السفين وحفظهـا ... ليـــسلم كـــل أو لـــيعظم غُنمـــه
أيركب هـول البحـر دون مقـاوم ... وفي طيه حرب كما يؤذن اسـمه
لذاك تـرى ملـك الفـرنج مـؤثلاً ... بعلـم علـى الأيـام يمتـدُّ يَمُّـهُ
ومملكة الإسـلام يقلـص ظلُّهـا ... وينقص مـن أطرافهـا مـا تـضمُّه
على أنهـا أجـدى وأبـسط رقعـة ... وأوسط إقليماً من الطبـع عظمُـه

إلى أن يقول:

فمن لم يجس خبراً أوربا وملكها ... ولم يتغلغل فـي المـصانع فهمـه
فـذلك فـي كـن البلاهـة داجـنٌ ... وفي مضجع العادات يلهيه حُلْمه
ومن لزم الأوطان أصبح كـالكلا ... بمنبتـــه منمـــاه ثُمَّـــةَ حَطْمُـــه
هم غرسوا دون التمدن فرعه الـــ ... ـرياضي والعلم الطبيعـي جذمُـه
أيجمـل يـا أهـل الحفيظـة أنهـم ... يبزُّوننـا علمـاً لنـا كـان فخمـه

وربما رمى في مديحه إلى غرض سياسي؛ كقوله في وصف بعض الوزراء:

تـراه فـلا تـدري لإفـراط بِـشْرِهِ ... تـــودّدَ أم داري لأمــــر يهمّـــه

وكانت الحكومة التونسية اتخذت قانوناً أقامته على أصول الشرع، وأسمته: عهد الأمان، فنظم شاعرنا قصيدة في ذلك، ومدح المشير الصادق

باشا على إقامة المجالس لإجرائه، ومما قال فيها يتحدث عن الدولة:

لما رأت مصباح شرع محمد بتلاعب الأهواء ذا خفقان

جعلت له القانون شبه زجاجة لتقيه هب عواطف الطغيان

وقال يذكر ما سيكون لعهد الأمان من الأثر في العمران:

وكأننا بمنازه الخضراء قد أنست مَغاني الشِّعب من بَوَّانِ[1]

وكأننا بقصورها قد شيدت وقصيرها كخورنَق النعمانِ

وكأنها بحضارة ونضارة ورُفُوه سكانٍ رياضُ جِنان

معمورة بجوامع وصنائع ومزارع وبضائع ألوان

وإذا لم يطلق الأستاذ العنان في هذه الأغراض الاجتماعية والسياسية كما يطلقه فيها كثير من شعرائنا اليوم، فلأنه عاش في عهد ما زالت أمته تتمتع فيه بنعمة استقلالها، ولو نشأ في عهد رأى فيه بعينه كيف وقع زمامُ أمته في يد غير وطنية، لكان لشعره في شؤون الاجتماع والسياسة أفسح مجال.

*** براعته في التشطير:**

عُني صاحب الترجمة بتشطير أبيات أو قصائد مشهورة، فيحسن وصل صدر الأصل بعجز، أو عجزه بصدر من عنده، حتى يخيل إليك أنهما انحدرا من قريحة واحدة، تدرك هذا في تشطيره لقصيدة بِشْر المعروفة:

«أفاطم لو شهدتِ ببطن خبت»

أنظر إلى تشطيره البيت الرابع منها، وهو مع التشطير:

(أنلْ قدميَّ ظهر الأرض إنِّي) أرى قدميَّ للإقدام أحرى

---

(١) موضع عند شيراز كثير الشجر والماء، وهو من أحسن منتزهات الدنيا.

ولـست مزحزحـي شـيئاً ولكـن (رأيت الأرض أثبت منك ظهرا)

ثم إلى تشطير البيتين السابع والثامن، وهما مع التشطير:

(نصحتك فالتمس ياليث غيري) فلـي بقيـا عليـك وأنـت أدرى

ومهـري قائـل لـك لا تخلنـي (طعامـاً إن لحمـي كـان مـرّا)

(ألـم يبلغـك مـا فعلتـه كفـي) ألست تـرى بهـا الأظفـار حمـرا

ألـم تلـك طاعمـاً أشـلاء فتكـي (بكاظمـة غـداة قتلـتُ عَمـرا)

ثم انظر إلى تشطير البيت الخامس عشر، وهو مع التشطير:

(وقلـت لـه يعـز علـيَّ أنـي) أراك معفـراً شـطراً فـشطرا

وأسـتحيي المـروءة أن ترانـي (قتلـت مناسـبي جلـداً وقهـرا)

*** استعماله الألفاظ الغريبة:**

يعذب الشعر، ويقع موقع القبول متى كانت كلماته مأنوسة الاستعمال، فالشاعر الذي يستطيع التأثير على النفوس، فيجعلها راغبة في الشيء، أو نافرة منه، ولا سيما شعراً يخاطب فيه الجمهور، هو الذي يتخير الألفاظ الدائرة في كلام البلغاء، فتقع معانيه في الأذهان عندما تطرق ألفاظه الآذان، وعلى هذا المنوال ينسج شاعرنا في كثير من شعره، ولا يبالي في جانب منه أن يستعمل الألفاظ الغريبة، وربما نظم البيت الواحد في سهولة وحسن تأليف، ويضع فيه كلمة غريبة يحتاج أكثر الأدباء في فهمها إلى مراجعة المعجمات؛ كقوله من قصيدة يرثي بها شيخ الإسلام الشيخ محمد بن الخوجة:

والنـاس بالآجـال سـفر رواحـل والدهر عاد لا يـريح وَسُـوجه[1]

(١) يقال: جمل وسوج؛ أي: سريع.

وقوله:

واحـذر مفاجـأة المنايـا للمنـى　　واقنع برشف علالـة مذلوجـه[١]

وقوله:

أنفاسـنا ونفوسـنا مـا بـين مَقْـ　　ـصور الهوى ومديده منعوجـه[٢]

ولعل عذره في استعمال هذه الألفاظ الغريبة أن الشعر لذلك العهد إنما يدور في مجالس أهل العلم، ولو أدرك العصر الذي كثرت فيه الصحف، وأصبح الشعر فيه معدوداً من الطرق المسلوكة لتنوير أفكار الجمهور، وتهذيب أخلاقهم، لتحامى أمثال هذه الألفاظ التي يحتاج في فهم معانيها إلى معجم، أو راسخ في علم اللغة.

وظهر في ذلك العهد رجال من علماء جامع الزيتونة لهم أقدام راسخة في علوم اللغة، واطلاع واسع على ما تحتويه معاجمها المبسوطة؛ مثل: المرحوم الشيخ أحمد الورتاني، والمرحوم أستاذنا الشيخ سالم أبي حاجب، وأستاذنا أبو حاجب هذا قد نظم أبياتاً في رثاء شاعرنا المتحدث عنه، وتاريخ وفاته، وأذكر منها قوله:

والـدهر مهمـا ينتبـذ درَّة　　مـن جيـده لـم يـرج إخلافُهـا

فكـم لآلـي حكمـة بـالثرى　　تقـذف والأجـداث أصـدافُها

فانظر لهذا الرَّمس كم ضم مـن　　معـارف لـم تحـص أصـنافُها

وقال:

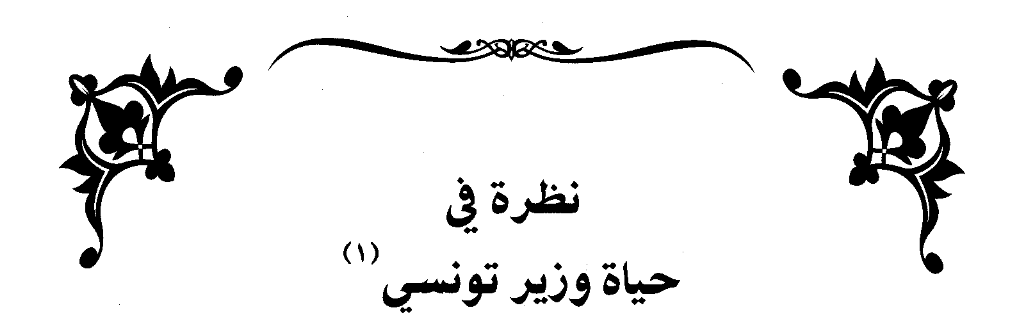
---

(١) ذلج الماء: جرعه، فهو مذلوج.

(٢) العنج: أن يجذب الراكب خطام البعير، فيرده على رجليه.

أمـا رحـى الآداب فهـو الـذي   بفقـــده قـــد حـــان إيقافُهـــا
أسدى لـه الـرحمن أضـعاف مـا   ترجو من أهـل الجـود أضـيافُها
ولا عدت سـحب الرضـى تربـة   آواه فـــي التـــاريخ أشـــرافُها

❑ ❑ ❑



نظرة في حياة وزير تونسي[1]

من كبار الرجال الذين تولوا الوزارة في تونس، فجمعوا بين العلم وجودة النظر في السياسة الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ محمد العزيز بوعتُّور، وقد رأينا أن نحدِّث قراء هذه المجلة عن شيء من سيرته العلمية الأدبية الاجتماعية، ففيها موضع قدوة.

* **نسبه ونشأته:**

هو الشيخ محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب ابن الوزير محمد بن محمد بوعتّور، ويتصل نسبه بالشيخ عبد الكافي القرشي دفين «صفاقس»، والشيخ عبد الكافي هذا قد جاء في التاريخ أنه من ذرية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولد صاحب الترجمة في مستهل رجب سنة ١٢٤٠ في تونس، ونشأ تحت رعاية أبيه الشيخ محمد الحبيب، فلقنه القرآن حتى حفظه على ظهر القلب، والتحق بطلاب العلم في جامع الزيتونة سنة ١٢٥٤، فتلقى العلوم الدينية والعربية وغيرها عن كبار الأساتذة؛ مثل: الشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ محمد بن الخوجه، والشيخ محمد النيفر، والشيخ محمد سلامة،

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن السادس والسابع من المجلد السابع الصادران في ذي الحجة ١٣٥٣، والمحرم ١٣٥٤.

والشيخ الطاهر بن عاشور.

برع صاحب الترجمة في العلم والأدب والذكاء، حتى بلغ صيته مجلس أحمد باشا أمير تونس لذلك العهد، فاستدعاه، وولاه خطة الكتابة بديوان الإنشاء سنة ١٢٦٢ . قال صاحب الترجمة عند حكايته طلب الأمير له، وتردده في قبول الولاية:

«ويشهد الله أني ما فكرت قط في وظيفة مدة قراءتي للعلم، وما قرأت إلا طلباً للكمال العقلي، ولقد فاجأتني الأقدار بما آل إليه أمري، والإنسان مسير لا مخير».

ثم اختاره أحمد باشا لتلاوة الأوراق والحجج التي تعرض عليه؛ لما رأى فيه من فصاحة اللسان، وحسن الإيجاز، وكان يصاحب ولي العهد محمد باي عند تجوله في البلاد، ولما توفي الأمير أحمد باي، كانت مكانة صاحب الترجمة عند الأمير الجديد محمد باي راسخة، حتى إن هذا الأمير كان يحليه في بعض أوامره بقوله: «محبّنا».

ولما انتقلت الإمارة إلى الأمير محمد الصادق باي، كان صاحب الترجمة من أكبر الرجال العاملين في دولته، فأسند إليه رياسة كتبة وزارة المال، ثم كتابة سر الملك، ثم رقاه لرتبة أمير اللواء في شوال سنة ١٢٧٧، ثم عينه عضواً بالمجلس الأكبر، ومستشاراً للملكة، وكتب إذ ذاك على قانون عهد الأمان تعليقاً نحا فيه نحو المجتهدين في الفقه، العارفين بسياسة العمران، ثم سماه الأمير مستشاراً بمجلس شورى الملك سنة ١٢٧٧، ومستشاراً لوزارة المال في سنة ١٢٧٩، وترقى في سنة ١٢٧٠ لرتبة أمير الأمر، وتولى بعد رياسة الكتاب، ووزارة القلم، فكان أول من جمع بين المنصبين بالدولة التونسية.

وفي سنة ١٢٨٣ أسند إليه خطة وزير المالية، وفي سنة ١٢٩٠ وجد منه الوزير خير الدين العضد الأقوى، فشاركه في تنظيم التدريس بجامع الزيتونة، وترتيب المدرسة الصادقية، وإدارة الأوقاف والسجون، والمستشفى الصادقي، والمحاكم الشرعية، وبيت المال، إلى غير ذلك من شؤون الدولة.

وما زال صاحب الترجمة ناهضاً بأعباء منصبيه: وزارة القلم، ورياسة الكتابة حتى وضعت الحكومة الفرنسية يدها على البلاد. وفي سنة ١٢٩٩ قلده الأمير محمد الصادق باي الوزارة الكبرى، ولندع سيرته السياسية إلى مقام آخر، والذي يعنينا التعرض له في هذه المجلة إنما هي سيرته العلمية والأدبية.

*** مكانته العلمية:**

كان صاحب الترجمة من العلماء أولي الآراء المستقلة، وكان مولعاً بمطالعة الأمهات من كتب العلوم الدينية والعربية وغيرها، وإذا حضر مجلسه أكابر العلماء، جلسوا وهم يشعرون بأنهم في مجلس عالم ذي نظر مستقل، واطلاع واسع، ومما كتبه أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ مصطفى رضوان في بعض ما كتب: «ونحن الآن في دولة وزير (يعني: صاحب الترجمة) عالم، قد رمى به الجامع (جامع الزيتونة) من أفلاذ كبده... إلخ».

ومن المعروف أن المحكمة الشرعية العليا إذا اختلف أعضاؤها في فهم بعض النصوص، أو تطبيق بعض القواعد، رفعوا إليه ما يجري بينهم من الخلاف، فتكون كلمته القول الفصل، كثيراً ما يرجح رأي واحد من أولئك الأعضاء، وإن خالفته الأكثرية.

ولمكانته في علوم الشريعة ووسائلها، عظمت غيرته على المحاكم

الشرعية، وجامع الزيتونة، فكان يدافع عنهما بكل ما يستطيع من قوة.

ولهذا الوزير، وطولِ مدة ولايته رياسة الكتابة والوزارة فضل كبير في رقي الإنشاء العربي بدواوين الحكومة التونسية.

*** استقامته وآدابه:**

كان صاحب الترجمة يحافظ على أداء صلاة الصبح في وقتها، ويتلو كتاب «الشفاء»، ويقرأ «صحيح الإمام البخاري» في رمضان حتى يختمه، وكان معروفاً بالصبر، ومتانة الخلق، والتؤدة، ولا يعرف عنه أنه باشر أحداً بكلمة جافية، بل كان يسلك في تأديب العاملين في منزله ـ من نحو الخادم وسائق العربة ـ الرفق، والعبارات الخالية من كل إهانة، وكان يلبس بعد عودته من ديوان الوزارة الملابس العربية؛ من نحو العمامة والجبة.

*** وفاته:**

أصيب ـ رحمه الله ـ بنزلة صدرية، وتوفي يوم الخميس غرة محرم سنة ١٣٢٥ ـ ٤ فبراير سنة ١٩٠٧ ـ بسرايته بالمرسى، وصلَّي عليه بإمامة شيخ الإسلام الخنفي الشيخ محمود بن الخوجة، ودفن بالتربة الخاصة بالأسرة الملكية الحسينية، وإليك العبارات المنقوشة على حجر قائم على قبره:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على النبي الكريم»

إنا لله وإنا إليه راجعون

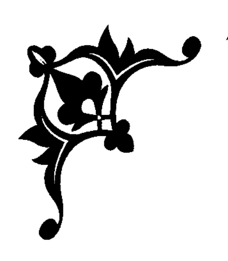
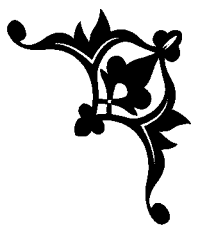
هذا ضريح الوزير الأكبر، العلامة الشهير، أستاذ العلم والتحرير، صاحب الرأي المتين، مازج الحياة بالوقار؛ والعزيمة باللين، الشيخ محمد العزيز بوعتور العثماني القرشي، المولود في رجب سنة ١٢٤٠، المتوفى في ١ محرم سنة ١٣٢٥ بعد أن درس وحرر، فأظهر فكرُه وقلمه آيات من

المفاخر بينات. ونيطت بأمانته استشارة وزارات. كانت خاتمتها: الوزارة الكبرى، التي نالت به خمساً وعشرين سنة مجداً وفخراً، وكان في جميعها مثال النصح والشرف والاستقامة، ونهى نفسه منذ النشأة عن الهوى، فأطاع ربه وخاف مقامه، حتى انتقل إلى ما عند الله، ومحاسنه ما بين أمثال سائرة، فآتاه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة».

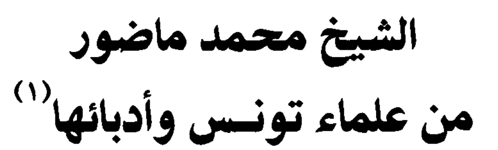
*** صلتي بصاحب الترجمة:**

كنت أيام الشباب أحاول نظم الشعر في بعض الأوقات، فدعاني ما عرفته عن هذا الوزير من الرسوخ في العلم والأدب أن أهنئه في يوم عيد بشيء من الشعر، فدخلت في طائفة من أهل العلم لتهنئته، وتلوت عليه أبياتاً وأنا جالس أمامه، فأصغى إليها بإقبال، وتناولها مني ببشر ودعاء، وكان في الحضرة سبطه العلامة الأستاذ السيد محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي بتونس لهذا العهد، فودعت الوزير وخرجت، وصحبني الأستاذ ابن عاشور، وكان ذلك اليوم فاتحة عهد اتصالي بالوزير، وعهد صداقة استوثقت بيني وبين حفيده الأستاذ ابن عاشور، وبلغت هذه الصداقة في صفائها وثباتها أقصى غاية.

وأصبح صاحب الترجمة منذ ذلك العهد ينظر إليَّ بعين الأب العطوف، وفي عهده أصدرت مجلة علمية أدبية تدعى: «السعادة العظمى»، ورأيت من تشجيعه ما أطلق القلم، وجعلني لا أبالي بصخب من يثورون في وجه كل ما يخالف العادات والآراء المألوفة، وفي عهده توليت قضاء بلدة «بنزرت» وملحقاتها، ووجود هذا الوزير العلاَّمة على رأس الوزارة ساعدني على أن أقتدي بما أقرؤه في سيرة القضاة الذين لا يخافون في الحق لومة لائم.

الشيخ محمد ماضور من علماء تونـس وأدبائها[1]



*** نسبه ومولده ونشأته:**

أصله من الجالية الأندلسية التي فرت بدينها من عدوان الإسبان سنة ١٠٠٩، وكان سلفه بالجزيرة من حماة الثغور ينتسبون إلى أبي القاسم أحمد ابن يحيى محمد بن عيسى بن منظور القيسي عالم «إشبيلية» وقاضيها المتوفى سنة ٥٢٠، وبعد جلائهم نزلوا بقرية «الجديدة» قرية خربة الآن على بعد بضعة أميال من «قرنبالية» تبعد عن مدينة تونس بنحو خمسين ميلاً، ولا تزال قبورهم معروفة هناك بضريح صالح يدعى: «سيدي سليمان»، والمهاجر الأول منهم يدعى: الحاج محمد، وتسلسل من نسله ستة من المحمديين خامسهم صاحب الترجمة.

ولد صاحب الترجمة ببلدة «سليمان» التي هاجر إليها قومه بعد خلاء قريتهم، واستوطنوها، وهي بلدة أنيسة، جميلة الموقع، حسنة المناخ، تبعد من مدينة تونس بنحو ٣٠ كم، وكانت ولادته عام ١١٥٠ أيام ولاية والده قضاء تلك البلدة وما يليها من شنة جزيرة شريك.

وكان أبوه من جلة العلماء المشاركين في حركة التجديد العلمي بتونس

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السابع من المجلد الثاني الصادر في ذي الحجة ١٣٤٨.

بعد دروس معالمه أثناء فتنة الاحتلال الإسباني وماتلاه من الحوادث. وقد رحل إلى الشرق، ولقي أعلامه؛ كالسيد البليدي، والصعيدي العدوي، والحفني، والطحلاوي، والدري، وغير هؤلاء ممن كتب له بخطه تقريظ بعض مؤلفاته التي حملها لهم في رحلته إلى حج البيت الحرام عام ١١٦٤، وعاد إلى بلده، وتقلد الإمامة والتدريس إلى أن توفي سنة ١١٩٩.

نشأ صاحب الترجمة تحت رعاية هذا العالم المحنك، واختص به، وقرأ عليه العلوم الشرعية والعربية والعقلية، وقد رأينا بديوانه قصيدتين بليغتين في تهنئة والده بختم تفسير «الكشاف».

ثم انتقل إلى الحاضرة حيث تلقى العلم عن أعيان علماء ذلك العصر، فأخذ القراءات عن الشيخ أبي يونس حمودة إدريس، والعربية عن الشيخ حمودة بن حسين باكير، والبلاغة عن قاضي باردو الشيخ منصور المنزلي، وأخذ عن شيخي الإسلام: حسين البارودي، ومحمد بيرم الأول، وعن أبي الفضل قاسم القلشاني، والشيخ أبي عبدالله محمد الشحمي.

*** حياته ووظائفه:**

ولما امتلأ وِطابُه علماً، واشتد نظره فهماً، أقبل على التدريس بالجامع الأعظم إلى أن توفي والده، وأجمع أهل بلده على طلبه لأن يقوم مقامه في القضاء والإمامة والتدريس ببلد سليمان، فتقدم لذلك مكرهاً كما يظهر من نفثات شكواه التي أودعها ديوانه الحافل.

*** أخلاقه:**

كان سمح السجية، وفياً، ذا ذوق سليم، وطبع رقيق، قال ابن أبي ضياف يصفه: «وكان عالما فقيهاً أديباً، ذا فهم سديد، وفكر ثاقب، خيراً،

عفيفاً، نقياً، عالي الهمة، ولشعره ديوان معروف».

* **علمه وأدبه:**

كان على طول باعه في علوم اللغة والشريعة يتعاطى ما بلغه العلم إذ ذاك من المعارف الطبية، وخواص المفردات الطبيعية، وله تعليقات على «ألفية ابن سينا»، وله إلمام بأحكام النجوم، ويستعمل لذلك الإسطرلاب والأرباع التي اخترعها العرب.

وله يد في الحساب والهندسة، وأما أدبه، فله شعر سهل المأخذ، رقيق المعاني، ينم عن شاعرية مطبوعة، وذوق لطيف.

* **آثاره وخاتمته:**

له من المؤلفات ـ عدا ديوانه العامر، والتعاليق الكثيرة على كتبه في فنون شتى ـ مقالة نفيسة في مراتب العلوم، ومختصر في رسم القراءات، وآخر في مخارج الحروف، والدر المكفوف في رواية قالون، والتطبيق في التوثيق، ومختارات أدبية.

قال ابن أبي الضياف في تاريخه: ولم يزل معظماً مكرماً، نبيه الشأن إلى أن لبى داعي الرحمن في ذي الحجة سنة ١٢٢٦ ـ رحمه الله، وتقبله بالعفو ـ.

* **نموذج من أدبه المنظوم:**

قال ـ رحمه الله ـ يشكو دهره وحساده في قصيدة مطولة:

وما غريب الدار في غربة ... وإنما الغربة فقدُ المثال

والعلم نعمَ الخدنُ لكنه ... مثير حساد وقيل وقال

مـا أهنـأ العـيش مـع الجهـل لـو ينفـع فـي الحـشر وعنـد الـسؤال

وقال في أخت له، وقد أراد أبوها أن يزوجها من غير كفؤ:

قولـوا لمـن نـشأت بعـز دلالهـا مـع أهلهـا مأنوسـة مـودوده

فـي دار مكرمـة جـرت أمياههـا مـسكوبة وظلالهـا ممـدوده

هـذا أبـوك يريـد دفنـك حيـة فـابكي لنفـسك: إنـك المـوءوده

ومن رقيق شعره في النسيب:

أفي حكم هذا الدهر أن يؤسر الحشا بأرض وفي أخرى أبيـت وأُصـبحُ

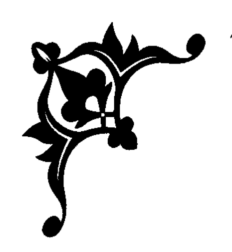
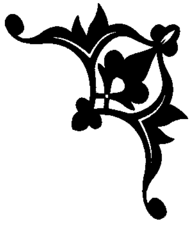
إذا الجانب الغربي لاحـت بروقُـه أهـش كـأني بالمدامـة أطفـح

وأقطـع بالتـسهاد ليلـي صـبابةً وزندُ الأسى في باطن الأرض يقدحُ

فيـا عجبـاً رامٍ بتـونس سـهمه براشٍ، وقلبي في «سليمان»[1] يُجرح

❐ ❐ ❐

(١) بلد صاحب الترجمة.

الشيخ محمد النجار
من أفاضل علماء تونس[1]

* ترجمته:

هو العلامة أبو عبدالله محمد بن عثمان بن محمد النجار، ويتصل نسبه بالشيخ عبد السلام بن مشيش، فهو شريف حسني، وأمه شقيقة العلامة المفتي الشيخ محمود قبادو النابغة الأفريقي.

ولد صاحب الترجمة في ١٥ شعبان عام ١٢٥٥، ودخل جامع الزيتونة سنة ١٢٧٠، وتلقى العلم عن والده الذي كان له مزيد اختصاص بالرضيات؛ كالهندسة والهيئة والميقات. ثم عن خاله الشيخ قبادو، وعن أعيان علماء عصره؛ مثل: شيخي الإسلام: محمد معاوية، وأحمد بن الخوجة، وكبير الشورى المالكية الشيخ محمد الشاذلي بن صالح، والمشايخ المفتين: الأستاذ محمد النيفر الأكبر، والأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ البنا، والشيخ علي العفيف، والشيخ محمد الشاهد، والشيخ سالم أبو حاجب، والشيخ عمر بن الشيخ.

ابتدأ التدريس بجامع الزيتونة عام ١٢٧٢، وانتخب مدرساً من الرتبة الثانية عام ١٢٨٤، ثم ارتقى إلى الرتبة الأولى عام ١٢٨٧، وفي ١٢ صفر

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد الثالث الصادر في جمادى الثانية ١٣٤٩.

عام ١٣١٢ تولى منصب الإفتاء، وكان يجمع بين الفتوى والتدريس بجامع الزيتونة، حتى توفي منتصف ليلة السادس عشر من رمضان سنة ١٣٣١ ـ أفاض الله على قبره رحمة ونوراً ـ.

كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ غزير العلم، كريم الأخلاق، يحب البحث، ويتلقى مناقشة الطلاب بصدر رحب، كنت ممن حضر درسه لكتاب «المواقف»، ودرسه لتفسير القاضي البيضاوي، ودرسه لشرح عبد الباقي الزرقاني على المختصر الخليلي، ولشدة استقصاء الأستاذ لما يقرره الكاتبون، وعنايته بنقد ما يوردونه من الآراء، مكثنا بضع سنين في أبواب من هذه الكتب معدودة، وكنت أستفيد من مجالسه ما لا يقل عما أستفيده من دروسه، إذ كان ـ رحمه الله ـ ذا ذاكرة لا تخونه فيما يستودعها إياه من علم، ولم نر له في سعة الاطلاع والمحاضرة بالعلوم على اختلاف فنونها من نظير.

وكان على طريقة علمائنا الراسخين في التواضع والحلم والتقوى، والعطف على طلاب العلم، فما رأينا منه في يومٍ الكراهةَ لبحث باحث، أو الإعراضَ عن سائل، فضلاً عن أن يسمع منه الطالب كلمة جافية.

*** مؤلفاته:**

من آثار الأستاذ: مجموعة أختام (إملاءات) على أمهات أحاديث «صحيح الإمام البخاري» كان أملاها بجامع سيدي أحمد بن عروس منذ عام ١٢٨٢، وبجامع الحرمل منذ عام ١٣١١، ومنها «مجموع الفتاوي» في ثمانية مجلدات، وله كتاب «بغية المشتاق في مسائل الاستحقاق»، وهو مجلد ضخم، جمع فيه ما تفرق من مباحث هذا الكتاب، وحرر فيه أحكام النوازل التي تعرض بالقطر التونسي كثيراً، وله محررات فقهية كتبها بمناسبة

ما يعرض من النوازل الهامة بالمحكمة الشرعية. وألف كتاباً بعد هذا رسائل في مواضيع عامة أيد فيها مذهب أهل الحق، وزاد حججهم بياناً، وله تأليف ممتع في رؤية الهلال، حرر في أثناء بحثه مسائل فقهية وأصولية وفلكية، وله إملاء حافل على حديث: «لا عدوى» ألفه بمناسبة تفشي مرض الوباء بالقطر التونسي عام ١٣٢٩، فكان خاتمة مؤلفاته ـ جازاه الله عن الإسلام خيراً ـ، وقد رثاه كثير من أهل العلم والأدب بقصائد بليغة، منها: قصيدة الشاعر المجيد الأستاذ المرحوم الشيخ محمد الصادق بن ضيف، وأذكر منها قوله:

كان المدافع عن شريعة جده ... ومجاهراً بالحق ليس يداري

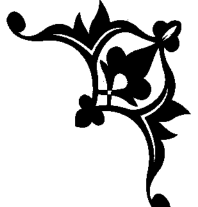
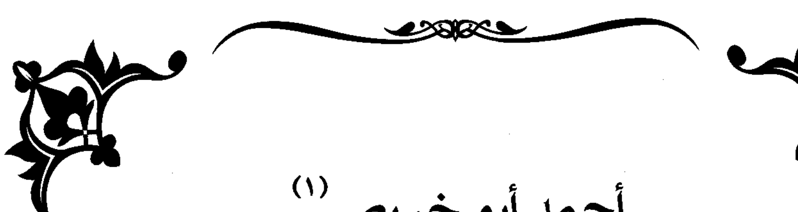
ومنها: قصيدة الأديب الكبير الأستاذ الشيخ السيد العربي الكبادي، ومما يقول فيها:

سيبكيك تفسير الكتاب وسنَّة ... مصححة كم شدت في شرحها قصرا

ستبكيك يارب العلوم «مواقف» ... أمطت بتحقيق على وجهها السترا

سيبكيكم الإفتاء يا خير أهله ... فما أحد فيه روى عنكم وزرا



أحمد أبو خريص (1)

هو أبو العباس أحمد بن علي أبو خريص، ولد في «وسلات» سنة ١١٥٦هـ. وقدم مدينة تونس صحبة والده سنة ١١٧٥، وأقبل على تلقي العلم في جامعة الزيتونة، فقرأ على الشيخ محمد الشحمي، والشيخ صالح الكواش، والشيخ محمد الغرياني، وغيرهم من علماء ذلك العصر، وبعد أن تضلع بالعلوم الدينية والعربية، تصدى للتدريس، فأقرأ كتباً كثيرة في جامع الزيتونة، وبمسجد المحرزية.

وولي الإمامة والخطابة بجامع الحلق، وألقى على منبره الخطب البليغة من إنشائه، ثم قلده الأمير محمود باشا خطة القضاء في ربيع الثاني سنة ١٢٣٠، فجرى على طريق العدل، وكان لا يسمح لأحد الخصوم أن يقابله في داره، ولكنه لبث في هذا المنصب أربعة أشهر فأخذ الله نور عينه إلى بصيرته، واستعفي من القضاء، وعاد إلى التدريس حتى وافاه الأجل المحتوم في ربيع الأول سنة ١٢٤٠، ورثاه الشيخ إبراهيم الرياحي بقصيدة يقول فيها:

كم رحيق معطر مختوم ... في كؤوس المنطوق والمفهوم

(1) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء العاشر من المجلد الأول الصادر في ربيع الأول ١٣٤٨.

قـد سـقاها أبـو خـريص نـدامى أطــربتهم بـــسرها المكتـــوم

فــي دروس أنوارهــا ســاطعات فـي سـماء النهـى بحـسن فهـوم

وكان صاحب الترجمة طيب السريرة، حسن اللقاء، أميناً فيما ينقل.

❐❐❐





الشيخ محمد بيرم الثاني

نسـبه وولادتـه ونشـأتـه[1]

* نسبه وولادته ونشأته:

بيت بيرام المشتهر الآن ببيرم من أشهر الأسر العلمية الحنفية بالديار التونسية، تداولت أفرادها مشيخة الإسلام بينهم نحو قرن ونصف، ولا زالت مقاليدها بيد أعقابهم إلى الآن.

وقد تأصلت أرومتها من جندي تركي قدم متطوعاً مع سنان باشا وزير السلطان سليم الثاني الذي فتح تونس من يد الإسبان سنة ٩٨١. والمحمدون من هذا البيت بلغوا لحد التاريخ سبعة، ولي مشيخة الإسلام منهم خمسة، والأربعة الأول تتركب منهم حلقات السلسلة الأصلية الماجدة.

فأولهم: شيخ الإسلام محمد بن الحسين بيرم، ولد سنة ١١٣٠، وأفتى سنة ١١٦٩، وتوفي سنة ١٢١٤، واختصر «أنفع الوسائل» للطرسوسي، وكتب رسالة في السياسة الشرعية، وغير ذلك.

وثانيهم: هو ابن المترجم هاهنا.

وثالثهم: ابنه المولود سنة ١٢٠١، وأول خطيب بجامع صاحب الطابع، وشيخ الإسلام بعد أبيه، والمتوفى سنة ١٢٥٩، وشارح «إيساغوجي» وغيره.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الخامس من المجلد الثاني الصادر في شوال ١٣٤٨.

ورابعهم: ابنه العالم الأديب المتفنن، السياسي الماهر، ولد سنة ١٢٢٠، وولي مشيخة الإسلام بعد أبيه، وبلغ بها شأواً لم يعهد؛ حيث أحدث دار الشريعة بتونس، وسن قوانينها، ونظم دواوينها، وكانت له خزانة عزيزة النظير. ترجم لخطباء الحنفية، وجمع شعر المتأخرين بكتابه «الجواهر السنية»، وشرح قواعد عهد الأمان، وهو دستور البلاد التونسية، وتوفي سنة ١٢٧٨.

والخامس: هو ابنه القاضي المفتي أبي النخبة مصطفى ابن شيخ الإسلام الأول، ولي القضاء سنة ١٢٩٠، والفتوى سنة ١٣٠٩، ومشيخة الإسلام سنة ١٣١٥، وتوفي ١٣١٨.

والسادس: هو العالم الرحالة الأديب المعروف في تونس برئيس جمعية الأوقاف، صاحب «صفوة الاعتبار»، وغيرها، وهو ابن الشيخ مصطفى رئيس ولاية الحسبة بتونس ابن شيخ الإسلام الثالث، النازح إلى مصر، والمتوفى بها سنة ١٣٠٧.

والسابع: المفتي محمد شهر السلامي نجل شيخ الإسلام الرابع، ولد سنة ١٢٧٤، وولي الفتوى سنة ١٣٢٦، وانصرف عنها إلى إمامة جامع باردو سنة ١٣٤١، وتوفي سنة ١٣٤٥.

وأنبغ هؤلاء وأشهرهم في عالم التأليف هو مترجمنا شيخ الإسلام الثاني، ولد في السادس عشر من ذي القعدة سنة ١١٦٢، وأخذ عن خلاصة أعلام عصره؛ كالقاضي محمد قار بطاق، والمفتيين: محمد الدرناوي، وأحمد الثعالبي البرانسي، والشيخ صالح الكواش، والشيخ محمد الشحمي، وغير هؤلاء، واختص بوالده.

*** وظائفه:**

درس بالمدرسة الباشية نيابة عن والده، واستقلالاً بها، وبالجامع الأعظم، وغيرهما، وقلد القضاء بعد عزل قار بطاق في ربيع الأول سنة ١١٩٢، واستقال فأُقيل في رجب سنة ١١٩٣، ثم أعيد لأربع بقين من ربيع الثاني سنة ١١٩٤، وطلب الإقالة فلم يجب، وولي نقابة الأشراف سنة ١٢٠٦، ومشيخة الإسلام بعد والده في ٥ محرم سنة ١٢٥١.

*** علمه وسيرته وصفاته:**

كان من أقطاب مجددي الحركة العلمية بعد وقوف دولابها أثناء الاحتلال الإسباني بتونس، وما حمل في مطاويه من فواجع وفظائع، وحسب التاريخ التونسي أن يحفظ لمترجمنا هذه الصفة المعتبرة، وكان غزير الحفظ، جيد الفكر، ناظماً ناثراً، وهو من قضاة العدل المشاهير، يتوجه بنفسه في معارضة الحبس لنظر العوض، ويسأل عن القيمة غير الأمناء المعينين لذلك، وهو الذي سنّ الزيادة على القيمة تحرياً لجانب الوقف والمولى عليهم، كما هو معمول به الآن في المحاكم الشرعية بتونس، وكان وقور المجلس، مهيباً عند الخاصة والعامة، محبباً إلى الناس، متبركاً به، هيناً ليناً، رقيق القلب، واسع الصدر، متواضعاً. نقل جميع ذلك ابن أبي ضياف.

*** آثاره:**

جمع له من الفتاوى الشرعية العملية مجلد ضخم هو قطب رحى الدائرة الحنفية اليوم بالمجلس الشرعي. ومن أشهرها رسالة «طلوع الصباح على المتحير في أجر الملاح» قرظها والده وجلة العلماء؛ كأحمد البارودي، ومحمد المحجوب رئيس المالكية، وحسن الشريف، و«رسالة في صحة

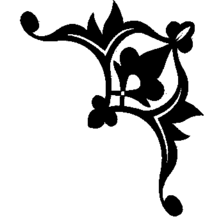
الرجوع عن الوصية التي التزم صاحبها عدم الرجوع عنها»، جرى فيها على أصول مذهبه؛ حيث لم يجدها منصوصة في فروعه، ونحا منحى أهل الترجيح، وأيد مذهبه بما يطابقه من المذهب المالكي، وقرظها له شيخ الجماعة الرياحي وغيره، وشرح رسالة صاحب البحر «شفاء الغليل في وقف العليل»، وتحقيق الكلام فيما لإجارة متولي الوقف المنحصر استحقاقه فيه إذا مات في أثناء المدة من الأحكام، و«تحقيق المقال فيما يعبر عنه بالمغارسة والاستنزال»، وغير ذلك مما لا يعد كثرة، ونظم جماعة المفتين الحنفية بتونس في رجز سماه «قلاده اللآل في حكم رؤية الهلال» في ٤٠٩ أبيات.

* **وفاته:**

توفي ـ رحمه الله ـ في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧، وحمل سريره الأمير وأولاده تعظيماً له.

❑ ❑ ❑





الشيخ محمد الخضار
من علماء تونس الأجلاء[1]

هو الأستاذ أبو عبدالله محمد بن محمد الخضار، كان والده يحترف بيع الخضراوات، ولم يكن من ذرية الشيخ علي الخضار الأندلسي المتوفى حالة سجوده من صلاة العصر بجامع الزيتونة سنة ١٠٦٥ كما وقع في بعض الأوهام.

ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٠٩هـ، وطلب العلم، فأخذ عن الشيخ حسن الشريف، والشيخ الطاهر بن مسعود، والشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ محمد الستاري، وتلقى دروساً من «المواقف» عن العلامة الشيخ محمد الفاسي، وأقبل على مطالعة الكتب الفلسفية، واجتمع مع رفيقه الشيخ محمد البحري على مطالعة «شرح القاضي زاده على الجغميني في علم الهيئة» بالمكان المعروف في جامع الزيتونة بمقصورة النواورية، ويحضر هذه المطالعة الشيخ عثمان النجار المعول عليه في هذا الفن لذلك العهد إلى أن أتوا على آخر الكتاب.

رحل صاحب الترجمة إلى حج البيت الحرام، واجتمع في مكة المكرمة والبلاد الشامية بكثير من كبار أهل العلم، وعاد إلى تونس بعد أن قضى في رحلته خمس سنين، واستمر على التدريس بجامع الزيتونة، وتولى قضاء

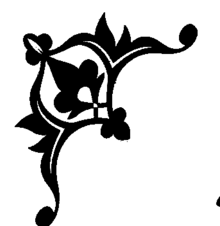
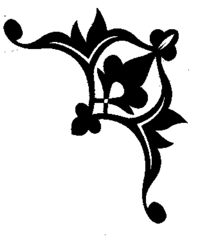
(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثالث من المجلد الثالث الصادر في شعبان ١٣٤٩ .

العسكر سنة ١٢٤٨، ووليّ الإمامة والخطابة بجامع التوفيق، فكان يلقي من إنشائه خطباً بليغة، وتقلد منصب الفتوى سنة ١٢٥٣، وعين للتدريس عند وضع النظام لجامع الزيتونة سنة ١٢٥٨، فكان يجمع بين خطتين: التدريس، والفتوى.

وكان صاحب الترجمة فصيح القلم، طلق اللسان، محققاً في العلوم العقلية، راسخ القدم في الفنون الأدبية، وقد أورد من شعره العلامة الأستاذ الشيخ محمد السنوسي في كتاب «مجمع الدواوين التونسية» مقداراً وافراً.

طرأ على بصره في آخر عمره ضعف، ولم ينطع عن التدريس حتى توفي ـ عليه رحمه الله ـ سنة ١٢٦٧.



السيد محمد النيفر
من كبار علماء جامع الزيتونة
في القرن الماضي[1]

*** نسبه وولادته ونشأته:**

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قاسم النيفر، يتصل نسبه بالشيخ محمد الرفاعي أخي الشيخ أحمد الرفاعي الشهير.

ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٢٢، ونشأ في حجر والده السيد أحمد النيفر من كبار التجار بسوق العطارين، وبعد أن حفظ القرآن الكريم، شمر عن ساعد الجد في طلب العلم، فأخذ عن أعلام ذلك العصر؛ مثل: الشيخ إسماعيل التميمي، والشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ محمد بن الخوجة، والشيخ محمد بيرم الثالث.

*** مكانته العلمية:**

أحرز صاحب الترجمة في العلم مرتبة عالية، وانتصب للتدريس وهو ابن ثماني عشرة سنة، ودرَّس بجامع الزيتونة كتباً عالية؛ مثل: «شرح القطب على الشمسية»، و«شـرح الجلال المحلي على جمع الجوامع»، و«تفسير القاضي البيضاوي»، وهو من المشهود لهم بالبراعة الفائقة، وحسن البيان، وكان أستاذه الشيخ محمد بيرم الثالث يستمع إلى درسه، فيعجب لحسن

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني من المجلد الثاني الصادر في رجب ١٣٤٨.

إلقائـه حتى قال مرة: «هذا يجري على سـنن أولي الطبقة العالية ممن بعد العهد بمثلهم». وكان يجلس للتدريس في سكينة ووقار، حتى إنه لا يستعين في التقرير بأية حركة أو إشارة.

وتخرَّج في دروسه طائفة كبيرة من كبراء أهل العلم؛ مثل: شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن الخوجة، وشيخ الإسلام أبي العباس أحمد كريم، وشيخ الإسلام أبي الثناء محمود بن الخوجة، والعلامة الشيخ سالم بو حاجب، والعلامة الشيخ عمر بن الشيخ، والوزيرين: الشيخ محمد العزيز بوعتور، والشيخ يوسف جعيط.

وأخذ عنه ابناه: قاضي الجماعة الشيخ الطاهر النيفر، وكبير أهل الشورى الشيخ الطيب النيفر، وكثيراً ما كان الأستاذ الشيخ يشبه دروس المترجم له برسائل تحوي تحارير بديعة، وتحقيقات نفيسة، مع ما يراعي فيها من حسن الترتيب، وإحكام الصلة بين الباحث.

* **مؤلفاته:**

لم يكتف صاحب الترجمة بالتدريس، بل ألَّف ـ عدا التعاليق والفتاوى ـ رسائل ممتعة وكتبا محررة، منها: «رسالة في البسملة»، و«حصر الخلاف فيها بين المفسرين والفقهاء والقراء»، و«رسالة في تقديم المسند إليه على المسند الفعلي»، وتعليقات على شرح الأشموني على الخلاصة».

* **أدبه:**

كان صاحب الترجمة يجمع إلى غزارة العلم رسوخاً في صناعة الأدب، يظهر هذا في فواتح مؤلفاته، وفي قطع بقيت من شعره حتى اليوم، ويحضرني الآن من نظمه قوله يوم ولي الفتوى:

ولو أنني استقبلت من أمري الذي لعمري قد استدبرت ما كنت قاضيا
ولكنها الأقدار تجري على الورى بإرغام ذي كره ومن كـان راضـيا
ومن يلتمس غُنماً فغنمي تخلص وأنجـو كفافـاً لا علـي ولا ليـا

*** ما تقلد من الخطط العلمية :**

تولى رواية الحديث في جامع باب الجزيرة المعروف بجامع القنيطرة، ونظارة مدرسة بئر الحجار، وقضاء المحلة بباردو، ثم تولى قضاء الجماعة (أي: قاضي القضاة) بالحضرة التونسية سنة ١٢٦٣ ، وفي يوم ولايته تولى العلامة الكبير الشيخ البنا خطة الفتوى، ومما قاله الأستاذ الشيخ إبراهيم الرياحي الشهير للأمير في ذلك اليوم: «أصبت، لا زال الله يصيب بك، هما خير زمانهما علماً وديناً». قال الشيخ أبي ضياف: «وناهيك بشهادة من ذلك العدل في ذلك المشهد!».

*** استقامته ووفاته :**

نشأ صاحب الترجمة على الفضيلة والتقوى، وسار في القضاء سير السلف العادلين، واستمر في منصب القضاء إلى أن دعاه صلاحه إلى حج بيت الله الحرام، فخاطب صاحب الدولة في أن يقيله من القضاء، ويأذن له في السفر إلى البيت الحرام، فأجاب طلبه، ورفعه إلى خطة الإفتاء سنة ١٢٦٧ ، وهيأت له الحكومة باخرة دولية تحمله ومن شاء أن يرافقه، فقضى فريضة الحج، ثم قفل عائداً، وحج ثانياً متطوعاً سنة ١٢٧٢ ، ثم عزم على أداء حجة ثالثة، فعز على أمير البلاد مفارقة الأستاذ للبلاد، وأرسل إليه الوزير أبا الضياف ليحل عزيمته على السفر، حتى قال له الوزير: إن نفع درس التفسير متعدد، ونفع الحج قاصر، وقد أديت الفريضة، وتطوعت بعدها،

ولكن صاحب الترجمة لم يُصغِ إلى قول الوزير، ورحل إلى مكة المكرمة، ثم هبط المدينة المنورة، وهناك فاضت روحه الطاهرة في سنة ١٢٧٧ ـ تغمده الله برحمته ورضوانه ـ.





السيد محمد الطاهر بن عاشور[1]

*** نسبه :**

هو السيد الشريف الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر ابن محمد بن عاشور، التونسي النشأة، الأندلسي الأصل، ولد بتونس سنة ١٢٣٠هـ في بيت شرف وعلم وصلاح من الأسر الأندلسية، وفد جده العالم الصالح سيدي محمد بن عاشور على تونس سنة ١٠٦٠ حسب ما ذكره الوزير السراج في «تاريخه»، وبسط القول فيه.

*** حياته :**

أقبل بعد حفظ الكتاب العزيز على مزاولة العلوم بجامعة الزيتونة على كبار أساتذة العصر؛ كأخيه الشيخ محمد بن عاشور، والشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ محمد بن الخوجة، والشيخ عاشور الساحلي، والشيخ محمد الخضار، وظهر نبوغه في مقتبل عصره، فانتخب للإفادة، وفي سنة ١٢٦٢ سمي مدرساً من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وفي رجب سنة ١٢٦٧ ولاه أحمد باشا قاضياً للحضرة التونسية، وكان معجباً بانتخابه إياه.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد الثاني الصادر في جمادى الثانية ١٣٤٨.

قال المؤرخ التونسي الشيخ أحمد بن أبي ضياف في ترجمته: «وكان الباي كثيراً ما يقول لي: ما فعل القاضي الشريف؟ فأحكي له ما يبلغني عنه من غريب منازعه، ووجيه أبحاثه، فأرى السرور بوجهه، قال: وباشر الخطة بميزان عدل، لا يلتفت إلى خوف ولا عذل، وشرَّد أهل الزور، وغلَّ أيدي الملحدين وأهل الفجور».

وفي سنة ١٢٧٧ ولاه محمد الصادق باشا خطة الفتيا، ثم أسند إليه نقابة الأشراف، والحسبة على الأوقاف الخيرية، والنظارة على بيت المال، وسمي عضواً بمجلس شورى الملك المؤسس بمقتضى قانون عهد الأمان. قال الشيخ ابن أبي ضياف: «وتوفي يوم الاثنين في ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٨٤، فمشى في جنازته الباي ورجال دولته، وكاد أن لا يتخلف عن شهودها أحد في البلاد، ورثاه الشيخ قابادو بقصيدة كلها عيون»، وهي القصيدة الرائية الثمينة في ديوانه، ودفن في زاوية جده سيدي محمد بن عاشور المشهورة بضاحية سيدي علي الزواوي بمدينة تونس.

* **أخلاقه:**

قال الشيخ ابن أبي ضياف: «كان عالي الهمة، زكي النفس، سليم الصدر، حسن الأخلاق، بعيداً عن التصنيع في الأزياء، حسن المحاضرة، أبيَّ الضيم، سخياً، محباً لتلامذته، يعاملهم معاملة الأنداد، حتى حل في نفوسهم أرفع محل». ومما اشتهر عنه: أنه كان شديداً في إقامته الشريعة.

* **علمه وآثاره:**

درَّس بجامع الزيتونة النحو والبيان والأصول والحديث، فدرس المطول،

وخاض في بحور «المفتاح» وشروحه، ولم تقف همته عند ذلك، فاستجلب كتاب «دلائل الإعجاز»، استنسخه من بعض مكاتب الآستانة على طريق بعض التجار، ولم يكن ذلك الكتاب بتونس من قبل، فكانت لدرسه رنة عظيمة في المحافل العلمية، ودرَّس «المحلي على جمع الجوامع»، فتعالى عن القشور، وقصد إلى لب علم الأصول، مع التنبيه على ما يعرض للناظرين من الأوهام، ودرَّس «صحيح مسلم»، وشرع في تدريس «تفسير البيضاوي»، فاقرأ من أوائله قليلاً، ثم عاجله الحِمام.

وتخرج عنه أعلام العصر الماضي؛ كالوزير العلامة الشيخ محمد العزيز بوعتور، والوزير العلامة الشيخ يوسف جعيط، والعلامة شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الخوجة، والعلامة اللغوي كبير أهل الشورى الشيخ سالم بوحاجب، وشيخ الإسلام الشيخ محمود بن الخوجة، والعلامة المفتي الشيخ محمد النجار، وشيخ الإسلام العلامة أحمد كريم، والمفتي المحقق الشيخ حسين ابن حسين، والعالم المؤرخ الشيخ محمد بيرم دفين مصر، وغيرهم من جهابذة تونس، وعلماء بلدان المملكة.

قال الشيخ ابن أبي ضياف: «وكان في مدة مباشرته للقضاء يرتاح إلى التدريس، ورغب منه أعيان تلامذته أن يكمل لهم درس «المحلي على جمع الجوامع» الذي كان شرع فيه قبل ولايته القضاء، فأجابهم إلى ذلك، وأقرأه بين العشاءين». وقد كان في تدريسه يفتح للتلامذة أبواب التفكير، ويجرئهم على مجاراة الكاتبين بأنظارهم، فأخرج لهم خبايا العلوم بطريقته المبتكرة يومئذ بجامع الزيتونة، وهي نفوذ النظر من أول الأمر لِلُباب المسائل، والتوسع فيها بالنظر في أصولها ونتائجها، مع تسقيط ما لم يجر على تلك

السنة من أقوال الكاتبين، تلك النزعة التي ظهرت بعده من نبغاء تلاميذه، فكان في المترجم ـ رحمه الله ـ بطل تلك النهضة العلمية التي حدثت في أواسط القرن الثالث عشر.

- كتب حاشية على «القطر» مهمة طبعت بمصر.
- وشرحاً على «بردة البوصيري» طبع بمصر.
- وحاشية على عبد الحكيم على «المطول» سماها: الغيث الإفريقي، لم تطبع.
- وحاشية على «المحلي على جمع الجوامع» لم تطبع.
- وحاشية على «ابن سعيد على الأشموني» جمعها من خطة تلميذه الشيخ أحمد كريم، لم تطبع.
- وحاشية على «شرح العصام لرسالة البيان» لم تطبع.
- وتعليقه على ما قرأه من «صحيح مسلم» لم يطبع.

*** أدبه:**

قال الشيخ ابن ضياف: «كان عذب البيان، كاتباً شاعراً بليغاً».

وله شعر جزل ينحو به المنحى العربي القديم، أعانه على الإجادة فيه تبحره في علوم اللغة وآداب العرب، ومن شعره موشح بديع عارض به موشح ابن سهل، وكان مقلاً مجيداً، وله نثر بليغ، وخطب معدودة في مواقف مشهودة، وقد اشتهر في عصره بالفصاحة، وبداهة الجواب.

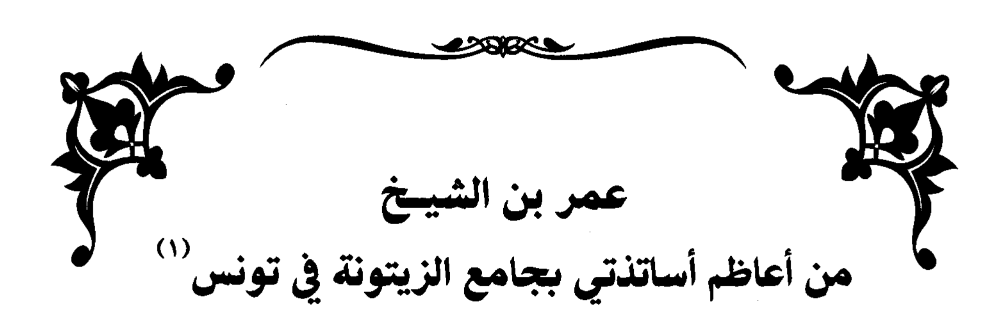
*** فقهه في القضاء والفتوى:**

قال الشيخ ابن أبي ضياف: «جرى مع فحول الفقهاء في مضمارهم

ومعارك أنظارهم، يحذو في الفقه حذو العلامة إسماعيل التميمي من مشاركة الأصول بالفروع، فلا يذكر فقهاً إلا مرجحاً بدليله، ويقول: لا يعجبني أن أقول: هكذا قال الفقهاء، وما يمنعني أن أعلم الدليل كما علموه، وعلى وجود حساده وتظاهر أضداده لم يجدوا في قضائه موضعاً لا نتقاده».

ولما ولي الفتيا، صدرت منه الفتاوى التي سارت صداها في الحاضرة، وبلدان المملكة، وأظهر فيها من تطبيق الفقه على الأصول ما غفل عنه كثير من الفحول ـ رحمه الله رحمة واسعة، وشمله برضوانه ـ جزاء صادق خدماته للعلم والدين.





عمر بن الشيـخ

من أعاظم أساتذتي بجامع الزيتونة في تونس[1]

هو عمر بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن قاسم المعروف بابن الشيخ، ولد الأستاذ بقرية يقال لها: «الماتلين» من عمل «بنزرت»، في حدود سنة ١٢٣٩هـ، وقدم به والده تونس صبياً، فنشأ بها، وعندما بلغ أمد التعليم، أقام له معلماً للقرآن المجيد، ثم دخل الجامع الأعظم جامع الزيتونة سنة ١٢٥٩، فتلقى العلم على كبار الأساتذة؛ مثل: الشيخ محمد بن مصطفى البارودي، والشيخ محمد الخضار، والشيخ محمد سلامة، وشيخ الإسلام الشيخ محمد معاوية[2]، والشيخ محمود قبادو الشاعر الشهير، والشيخ الشاذلي ابن صالح، والعلامة الشيخ محمد النيفر، والعلامة الشيخ محمد بن الخوجة، والعلامة الشيخ حمده بن عاشور، والعلامة الشيخ محمد الشاهد، والعلامة الشيخ محمد البنا، والأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم الرياحي.

ولما اشتد ساعد الأستاذ فهماً، وامتلأت وطابه علماً، جلس للتدريس بجامع الزيتونة سنة ١٢٦٦، ثم صار مدرساً من الطبقة الثانية سنة ١٢٦٨،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني عشر من المجلد الثامن الصادر في جمادى الآخرة ١٣٥٥.

(٢) صاحب «الحواشي على مختصر السعد»، والذي ينقل عنه المرحوم العلامة الشيخ الأنباني، أو يناقشه في تقريراته على «حواشي البناني على المختصر».

ثم صار مدرساً من الطبقة الأولى سنة ١٢٨٣ .

ودرَّس الأستاذ كتباً عالية في علوم شتى، تدريسَ بحث وتحقيق، منها: «الشرح المطول على متن التلخيص»، و«شرح الأشموني على الخلاصة»، وكتاب «مغني اللبيب»، و«شرح المحلي على جمع الجوامع»، و«شرح السعد على العقائد النسفية»، و«شرح الزرقاني على المختصر الخليلي»، و«تفسير القاضي البيضاوي»، انتهى فيه إلى قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨].

ودرَّس كتاب «المواقف بشرح السيد»، ولم يكن من الكتب التي تدرس لذلك العهد، حتى أتى على نهايته، وتليت عند ختمه القصائد البليغة، وكان يحضره أكابر المدرسين.

وأذكر من القصيدة التي ألقاها يومئذ العلامة خالي المرحوم الشيخ محمد المكي بن عزوز قوله:

إذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه ... تعالَ التقطْ دراً بملء جفان

وكان الأستاذ قد عقد للمذاكرة في هذا الدرس خاصة مجلساً ليلياً في منزله، يشهده كثير من العلماء الذين يحضرون الدرس نفسه في جامع الزيتونة وغيرهم، وبعد أن ينصرفوا يخلو الأستاذ بنفسه للمطالعة، فيجيء إلى الدرس صباحاً وقد قتل مسائله بحثاً وتحقيقاً.

أما أسلوب الأستاذ في التعليم، فمن أنفع الطرق، كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتضح المراد منها، ثم يأخذ في سرد عبارات الشرح، وما تمس الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لا سيما الكتب التي استمد منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة،

ولا يغادر عويصة أو عقدة إلا فتح مغلقها، وأوضح مجملها؛ بحيث يتعلم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أقوال المؤلفين، زيادة عما يستفيده من العلم.

فالأستاذ لم يأخذ في دروسه بطريقة الإملاء، كما يصنع كثير من كبراء الأساتذة، إلا أن له مزية التحقيق والكشف عن أسرارها بوجه يدلك عمَّا له من سعة العارضة، والغوص في أعماق المباحث إلى أبعد غاية.

وعادته أن لا يورد بحثاً، أو جواباً عن اعتراض، إلا بعد التثبيت، والاستناد فيه إلى قاعدة مسلَّمة، ومن هنا كان الغالب على أفهامه الاستقامة، وإصابة المرمى، وإذا عثر على خلل لبعض المؤلفين، التمس له المعذرة ما أمكنه، وإلا، قرر وجه الخلل، ونبه على مكانه بأدب ولطف في البيان، وكان له عقل أشرب قوانين المنطق، فلا يروج عليه الزيف، وإن صدر من عظيم، أو خرج في زخرف من القول.

وانتخب الأستاذ ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٧٨ عضواً في المجلس الأكبر، ونائباً لرئيس المجلس الاعتيادي، فظهرت له براعة فائقة في تطبيق القوانين.

ولما تخلى الوزير مصطفى خزنه دار عن الوزارة، وعزمت الدولة محاسبته على الأموال التي وردت بيت خزينة المال مدة ولايته، عقدت مجلساً لذلك، واتخذت صاحب الترجمة وكيلاً عنها؛ ثقة بما عرف به من رجاحة العقل وسداد الرأي، ولما انتهت هذه المسألة، قلدته خطة قضاء باردو (قاضي الجيش) سنة ١٢٩٠.

وكان لصاحب الترجمة اليد الطولى في نظام التعليم بالجامع الأعظم في عهد وزارة خير الدين؛ فقد كان أحد أعضاء اللجنة التي شكلها الوزير

خير الدين لوضع القانون تحت رياسته[1].

وكان كل واحد من أعضاء هذه اللجنة يضع ما يبدو له، ثم يجتمعون وينقحون ذلك، ويدونونه فصولاً، حتى انتهى ذلك القانون سنة ١٢٩٢، وبعد انتهائه عرض عليهم الوزير خير الدين قانوناً حرره بنفسه لنظارة الجامع، وإقامة نائبين عن الدولة، وسمى صاحب الترجمة نائباً أول عن مستشار المعارف أمير الأمراء السيد حسين، فوقف الأستاذ على تنفيذ القانون أحسن قيام، وأصبحت إدارة الجامع العلمية بيد صاحب الترجمة، فكان مثال العدالة والاستقامة.

ووُلِّي صاحب الترجمة في عام ١٣٠٨ خطة الفتوى بحاضرة تونس، فاهتز لولايته ارتياحاً كل من يقدره ويعرف إخلاصه، ونهض بأعبائها نهضة الناصح الأمين، وامتاز بالبراعة في تطبيق الأصول على الفروع.

قلَّدته الدولة خطة الإفتاء، وأبقت له منصب النيابة عن وزارة المعارف في نظارة الدروس؛ لشدة ثقتها بأمانته، وحرصِه على إجراء ما تقتضيه التراتيب العلمية.

وأحبَّ صاحب الترجمة أن يتزود من الأعمال التي لا تنقطع بعد الموت، فأضاف إلى العلم الذي بثه في صدور الرجال أن تنازل سنة ١٣٢٤ عن مرتب التدريس للمتطوعين بالتدريس في الجامع الأعظم مدة حياته، وأوصى لهم

---

(١) هذه اللجنة: رئيسها الوزير خير الدين. ووكيل الرئيس وزير القلم لذلك العهد الشيخ محمد عبد العزيز بوعتور، والأعضاء: الشيخ عمر بن الشيخ، الشيخ أحمد بن الخوجة، الشيخ الطاهر النيفر، الشيخ أحمد الورتاني، الشيخ مصطفى رضوان، الشيخ محمد بيرم، السيد العربي زروق.

بقطع من المزارع يصرف لهم ريعها بعد وفاته.

وفي سنة ١٣٢٥ أدرك جسمه ضعف الكبر، ودعاه الحال يومئذ إلى تقديم استعفائه من منصبي الفتوى والنيابة بالجامع، فأعفته الدولة منهما، وأبقت له لقب مفتٍ ونائبٍ اسماً شرفياً، وعينت له في السنة أربعة آلاف وسبع مئة وأربعين فرنكاً مرتباً دائماً.

وجرى الأستاذ على العناية بأمر التدريس، وبذل المجهود في تحرير المسائل وتنقيحها بدون أن يعنى بأمر التأليف، إلا ما يقتبسه تلاميذه من تحريراته القيمة، ويضعونه على حواشي نسخهم؛ ليرجعوا إليه عند إقراء ذلك الكتاب.

وكان صاحب الترجمة ذا جبين طلق، وصدر رحيب، يقابل الأذى بالحلم، وربما ابتسم للكلمة يرمى بها، وهو شاعر بما تنطوي عليه من سوء، ولا تأخذه رفعة منصبه عن الانبساط للفقراء والأميين، والنزول إلى محادثتهم بقدر ما يفهمون.

وله عطف على سائر المتعلمين، واعتناء بالغ بالأذكياء منهم. كما اشتهر بالمحافظة على إجلال أساتيذه، ورعاية حقوقهم حال الغيبة واللقاء.

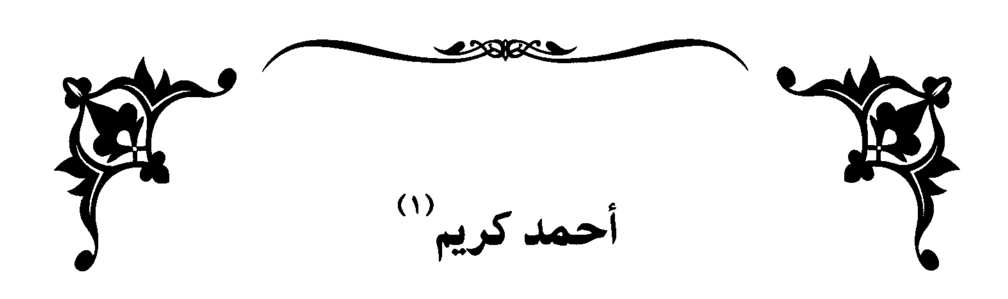
تلقيت عن الأستاذ ـ رحمه الله ـ دروساً من «تفسير البيضاوي»[1]، ودروساً من «شرح التاودي على العاصمية»، ودروساً من «شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي». وكنت بعد أن استقال من منصبي الفتوى ونظارة

---

(١) حضرت عليه من تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾[آل عمران: ٣] إلى تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١٨]، وهي الآية التي انتهى إليها الأستاذ في قراءة هذا التفسير.

الجامع أزوره كثيراً؛ حرصاً على الاستفادة من علمه، ورأيت يومئذ كيف يقبل الناس على ذي المنصب، حتى إذا اعتزله، قل زائروه، وإن كان عظيماً في علمه وفضله، وما زالت مجالس الأستاذ تفيض علماً، ووجهه يتهلل بشراً، ولسانه لا يقول إلا خيراً، إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الثلاثاء في الثالث من المحرم عام ١٣٢٩ ـ أسبغ الله عليه رداء رضوانه، وأرسل عليه وابل رحمته وإحسانه ـ.





أحمد كريم(١)

أحد علماء تونس وأدبائها الذين تركوا من خلفهم آثاراً قيمة، وهو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمود بن عبد الكريم المدعو: كريم بن عصمان.

ولد صاحب الترجمة في ٢٧ صفر سنة ١٢٤٣، والتحق بطلاب العلم في جامع الزيتونة سنة ١٢٦٥، فتلقى العلم عن أساتذة كبار؛ مثل: الشيخ معاوية، والشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ الطاهر بن عاشور، وتولى التدريس في جامع الزيتونة سنة ١٢٦٥، وأقرأ به كتباً عالية، منها: كتاب «التلويح» لصدر الشريعة.

وعقدت الحكومة التونسية مجالس للنظر في الجنايات، فعينت الأستاذ نائباً لرئيس هذه المجلس سنة ١٢٧٧، فدل على براعة استحق بها أن صار الرئيس لهذه المجالس من بعد، ثم تقلد خطة الإفتاء على مذهب الإمام أبي حنيفة سنة ١٢٨٠، وتولى مع ذلك الخطابة والإمامة والتدريس بالجامع الحسني سنة ١٢٨٤، فكان يلقي خطباً بليغة من إنشائه، وتولى مشيخة الإسلام بعد هذا، فألبسها كرامة، ولم يلوثها بالتملق لذي سلطان، حتى انتقل إلى رحمة ربه سنة ١٣١٥.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السادس من المجلد الأول الصادر في ذي القعدة ١٣٤٧.

للأستاذ تقييدات ومؤلفات في الفقه الحنفي وغيره، منها: شرح لمنظومة المحبي في الفقه الحنفي، وتعرض في هذا الشرح لما يجري به العمل في الديار التونسية، وتصدى في تأليفه لربط الأحكام بأصولها، وشرح قصيدة كعب بن زهير «بانت سعاد» شرحاً وافياً، وله شعر جيد كان قد جمعه في ديوان يسمى: «السحر الحلال»، وأذكر من شعره قصيدة خاطب بها الأمير محمد الصادق باي شاكراً له على ما قام به من تطبيق القانون المسمى: (عهد الأمان)، ومما يقول فيها:

تيقن أن العدل أبقى لملكه ... فأضحى لطرق الجور ينسفها نسفا

ثم قال:

وأمنت أهل القطر من كل ضائر ... ولولا وجوب الحتف أمنتنا الحتفا

جعلت أساس العدل فيهم أمانهم ... على العرض والأبدان والمال مستوفى

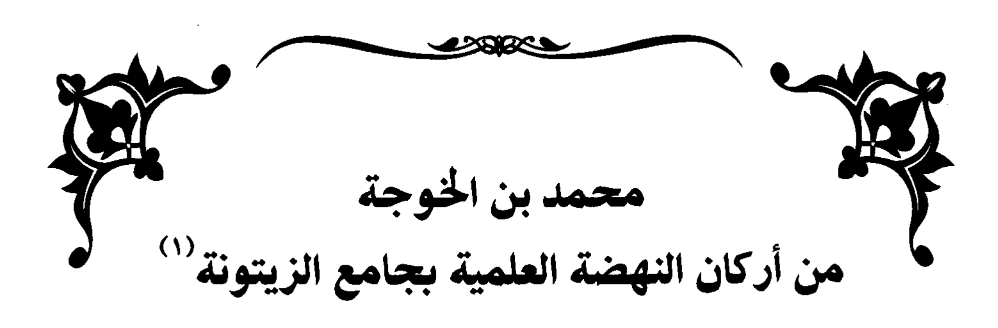
وسوَّيت في الأحكام بين جليلهم ... وبين ضعيف كان في الحق يستخفى

وألزمت أحكاماً هي الفيصل التي ... توافقنا شرعاً ونعتادها عرفا

يقر لها بالعدل كل معاند ... يعض على غيظ أنامله لهفا

شهدت له دروساً كان يلقيها بالجامع الحسيني في شهر رمضان، فكنت أسمع بحثاً دقيقاً، وعبارات أنيقة، وكان الأستاذ ـ رحمه الله ـ فصيح المنطق، حسن السمت، لطيف المحاضرة.





محمد بن الخوجة

من أركان النهضة العلمية بجامع الزيتونة(1)

ولد في ٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٤، ونشأ بين يدي والده، وتلقى عنه العلم، وعن شيوخ آخرين؛ مثل: الشيخ أبي محمد حسن الشريف، وشيخ الإسلام أبي عبدالله محمد بيرم الثاني، وجدَّ في طلب العلم حتى أحرز فيه المرتبة السامية.

*** مكانته في العلم:**

وصفه الشيخ أحمد بن أبي الضياف في «تاريخه»، فقال: «تصدر للتدريس، ونشر الدر النفيس، بتقرير يدل على امتداد باع، وسعة اطلاع، تقف دونه الأطماع، فاستحدث من شمس علومه البدور، وانتفعت به العامة والصدور» وقال: «كان هذا المحقق تقياً نقياً ورعاً، معدوداً في درجة المجتهدين، خاتمه المحدثين، كاد يحفظ «صحيح البخاري»؛ لأنه اتخذ قراءته كل يوم وِرداً، ذا فكرة يدعوها فلا تتوقف، ويلقي عصاها فتتلقف، رفع للعلم راية خافقة، وأقام لها سوقاً نافقة، وجرى في ميادينه طلق الأعنة، ماضي الظُّباتِ والأسنة».

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السادس من المجلد الثاني الصادر في ذي القعدة ١٣٤٨.

*** ما تقلد من المناصب:**

تولى صاحب الترجمة في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٢٥١ خطة القضاء بالمذهب الحنفي، وسار فيها سيرة العلماء المصلحين.

قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف يصفه: «تولى خطة القضاء، فأجرى الحق، وأوضح ما خفي، وبرع في تطبيق الأحكام على النوازل، مسوياً بين الخصوم، وإن اختلفوا في المنازل، بعدلٍ ميزانه قائم، وجزالة لا تنثني عن الحق بلائم».

وفي ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٩ انتقل إلى خطة الفتوى. وفي ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ أسند إليه منصب شيخ الإسلام، فقام عليه خير قيام إلى أن أدركه أجله، وتغمده الله برحمته.

*** استقامته ومتانة أخلاقه:**

كان صاحب الترجمة متجملاً بالعفاف ولطف الشمائل، وإطلاق اليد في عمل الخير، قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في سياق الحديث عنه: «ما شئت من كرم أخلاق، وأياد في الأعناق، ألزم من الأطواق، ونفس لطيفة الشمائل والشيم، ومحاضرة يفوق نفعها الديم».

وكان ـ رحمه الله ـ يمثل في شرف همته سيرة العلماء الذين يرون في مقامهم العلمي ما يسمو بهم عن أن يضعفوا أمام الرؤساء وذوي الوجاهة، تلك الخصلة التي تكسو العالم جلالة، وتجعله في الناس ناصحاً أميناً. ومما يشهد باستقامة صاحب الترجمة ـ كما وصفنا ـ: أن صاحب الدولة مصطفى باي ظهر له أن يهب أرضاً يقال لها: (هشام) لوزيره مصطفى صاحب الطابع؛ لقربها من بستانه المعروف بسبالة الكاهية، وكانت هذه الأرض من

أحباس جد الباي، وهو من المستحقين، فأرسل الباي الوزير الشيخ أبا الضياف لخطاب صاحب الترجمة، وهو يومئذ في خطة القضاء؛ ليأذن بعقد المعاوضة، فخاطبه فامتنع، ولج في الامتناع. قال الأستاذ أبو الضياف: «ثم استأذنت الباي أن أكلمه بمحضر الجماعة (بقية أعضاء المحكمة الشرعية)، فقال لي: «تكلم بالنيابة عني»، فجلست مجلس الخصوم، وأعدت المطلب، فقال لي في ذلك المشهد: يا بني! (إن بدني لا يطيق النار)، ثم التفت إلى الباي، (وكان في الحضرة)، وقال له: (إني نائب عنك، ولم تظهر لي مصلحة في هذا العوض، فإن ظهرت لك المصلحة، فافعل، وكاتبك هذا (يعني: ابن أبي الضياف) يحسن الكتابة، وأنت تحسن النظر، فرجع الباي على عادته في الوقوف مع الحكام الشرعية، والأدب معها».

ومن حرصه على نصيحة السلطان: أن أمير البلاد المشير الأول أحمد باشا باي كان قد أمر بقتل سبعة من العساكر في قريب من شهر رمضان. وكان صاحب الترجمة ممن يلقون دروساً في رمضان تسمى هنالك بالأختام، فجعل موضوع الدرس قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ...﴾[النساء: ٩٣] إلخ الآية. وكان الباي ممن شهد حفلة الختم. فأخذ الشيخ يقرر معنى الآية، ويورد ما ورد في قتل النفوس من الوعيد، حتى ظهر على الباي أثر الغضب، وأوجس الحاضرون خيفة أن يسرع إلى الانتقام منه، ولكن النصيحة التي تصدر من سريرة خالصة لا تأتي في غالب الأحوال إلا بثمرة طيبة، وعاقبة وحسنة.

«إن التقي إذا غالبته غلبا».

وكان ملوك تونس يرغبون في حضوره مجالسهم غير الرسمية، فإذا

بعثوا إليه، تمثل للرسول بهذين البيتين:

قــل للملــوك نــصيحة لا تــركنن إلــى فقيــهِ
إن الفقيــه إذا أتــى أبــوابكم لا خيــر فيــهِ

ثم يقول له: «أبلغ أتم سلامي إلى الأمير، وقل له: إن العبد حاضر متى امرتموه بتحرير مسألة».

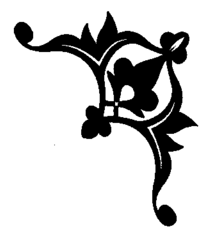
*** وفاته:**

توفي في يوم عاشوراء من سنة ١٢٧٩ بجبل المنار، ونقل إلى داره بحاضرة تونس، وقدم لحضور جنارته صاحب المملكة محمد الصادق باي من حلق الوادي، ودفن بزاوية سيدي عطية، واتفق أن كان تاريخ وفاته في لفظ: (عاشوراء)، ورثاه طائفة من العلماء، منهم: الشيخ محمود قبادو المفتي المالكي، ومرثيته في ديوانه المطبوع.

*** مؤلفاته:**

لصاحب الترجمة مؤلف في الفقه سماه: «المحررات الفقهية» في ثلاث مجلدات، وله تعليقات على «حاشية الشيخ عبد الحكيم على تفسير البيضاوي»، وسماها: «معين المعاني على علم المعاني»، وتعليقات على كتاب «الدرر»، وحاشية على «شرح المكودي للخلاصة»، وكتب شرحاً لحكم أرسطاليس «العالم بستان... إلخ» باقتراح من المشير أحمد باي، إلى غير هذا من الرسائل والأختام التي هي دروس تلقى في رمضان بعد تحريرها في هيئة رسائل.

ملأ الله قبره نوراً ورحمة.

أحمد الورتاني(١)

من علماء تونس الذين بلغوا في العلم رتبة سامية، وأحرزوا سمعة طيبة: أبو العباس أحمد بن سالم بن إبراهيم الورتاني، ولد سنة ١٢٤٦، وبعد قراءة القرآن على والده التحق بطلاب العلم في جامع الزيتونة، وتلقى عن علماء أجلة؛ مثل: الشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ ابن ملوكة، والشيخ معاوية، والشيخ محمد بن سلامة، والشيخ محمد الشاهد، ورحل لأداء فريضة الحج سنة ١٢٧٠، ولقي بالقاهرة الشيخ إبراهيم الباجوري، وأجازه إجازة مطلقة، وفي سنة ١٢٧١، ندبه الوزير مصطفى خزنه دار لتأديب أبنائه وتعليمهم، وفي سنة ١٢٨٥ أقبل على التدريس في جامع الزيتونة بتحقيق ومواظبة، وفي سنة ١٢٨٧ تولى منصب التدريس، وعرف بالتثبت فيما يقول، وبإنصاف الطلاب عند البحث، وكان يمتاز عن أقرانه بسعة الاطلاع في التاريخ واللغة، وسافر إلى الآستانة يوم كان الصدر الأعظم بها خير الدين باشا التونسي، وأقام بها حيناً، ثم عاد إلى تونس راجعاً، وعين عضواً في مجلس إدارة الأوقاف، وصار بعد هذا نائب رئيس المجلس، وفي سنة ١٢٩٧ ولاه المشير أحمد باي رئاسة الأوقاف، ونظارة

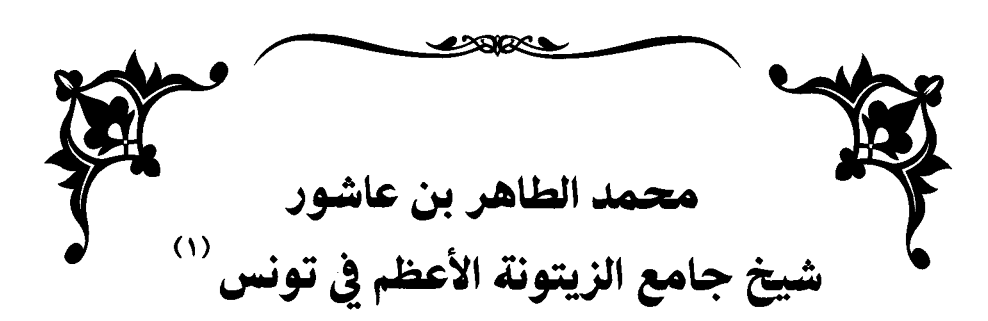
---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السابع من المجلد الأول الصادر في ذي الحجة ١٣٤٧.

المطبعة الأميرية، وفي سنة ١٢٩٩ فصل عن نظارة المطبعة، وبقي على رئاسة الأوقاف.

وفي جمادى الثانية سنة ١٣٠٣ تقدم في طائفة من الفضلاء يعرض على الدولة بعض مطالب وطنية، وبقي بعد هذا على خطة التدريس وحدها حتى توفي ليلة السادس عشر من ذي الحجة في هذه السنة، وهي السنة ١٣٠٣، فذهب إلى رحمة الله، وقد ترك في نفوس مريديه علماً نافعاً، وعلى ألسنة الأمة التي شهدت منه الغيرة والاستقامة ثناء فاخراً.





محمد الطاهر بن عاشور
شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس[1]

* نسبه ونشأته:

هو السيد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، وجده للأب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور قاضي الحضرة التونسية، وصاحب المؤلفات القيمة، وجده للأم العلامة الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتُّور.

ولد الأستاذ بتونس سنة ١٢٩٦، وشب على تعلم القرآن حتى أتقنه حفظاً، وفي سنة ١٣١٠ دخل جامع الزيتونة، فثابر على تعليمه حتى أحرز شهادة (التطويع) سنة ١٣١٧.

وفي سنة ١٣٢٠ فاز في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية، وفي سنة ١٣٢٤ ارتقى بمناظرة أيضاً إلى التدريس من الرتبة الأولى.

وفي سنة ١٣٢١ سمي مدرساً بالمدرسة الصادقية، مع بقائه مدرساً بالجامع الأعظم، وفي سنة ١٣٢٥ سمي نائباً عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية، فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمة على التعليم بحسب ما سمح به الحال، وحرر يومئذ لائحة في إصلاح التعليم، وعرضها على

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الخامس من المجلد الخامس الصادر في شوال ١٣٥١.

الحكومة، فأمكن تنفيذ شيء منها، وأبقي كثير منها إلى فرص أخرى، كما سعى في إحياء بعض العلوم العربية بالجامع، وقد كان غالب أهل العلم يقتصر منها على النحو، وعلى المعاني والبيان، فأكثر من دروس الصرف في مراتب التعليم الثلاث، ومن دروس أدب اللغة، وشرع في تدريس «ديوان الحماسة» بنفسه. ولما تأسست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة ١٣٢٩، كان الأستاذ ابن عاشور عضواً في هذه اللجنة، وهو الذي تولى تقرير حالة التعليم، وكان الاعتماد على لائحته المشار إليها آنفاً.

وقدم لائحة في إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي منظم في خمس مدن من مدن المملكة: القيروان، وسوسة، وصفاقس، وتوزر، وقفصة. وفي تلك السنة سمي عضواً بالمجلس المختلط العقاري.

وفي سنة ١٣٣١ أسندت إليه خطة القضاء المالكي بعاصمة تونس، ودخل في هيئة النظارة العلمية التي تدير شؤون جامع الزيتونة.

وفي سنة ١٣٤١ سمي مفتياً مالكياً بالديار التونسية، وعاد إلى التدريس بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية، وفي سنة ١٣٤٣ عهد إليه بأمر النيابة عن الشيخ (باش مفتي) رئيس المالكية، وفوض إليه مباشرة وظائفه الشرعية والعلمية.

وفي سنة ١٣٤٥ ارتقى إلى رتبة باش مفتي بالأصالة؛ أي: صار رئيساً للمجلس الشرعي المالكي، وتلك الخطة تخوله أيضاً أن يكون أحد رئيسي المعهد الزيتوني، واستمر على إقراء دروسه في مواقيتها، مع أن خطته تخوله الانقطاع عن التدريس؛ إذ لم يبق معها في صف المدرسين.

وفي جمادى الأولى سنة ١٣٥١ صدر الأمر الملكي بتلقيبه (شيخ الإسلام

المالكي)، وتسويته بزميله (شيخ الإسلام الحنفي) تسوية تامة.

وفي جمادى الأولى من هذه السنة[1] صدر الأمر الملكي بتعيين رئيس للنظر في شؤون التعليم بجامع الزيتونة يلقب بشيخ الجامع الأعظم، وأسندت هذه الرئاسة إلى الأستاذ صاحب الترجمة، وصرح له حضرة صاحب الجلالة أمير البلاد بأنه يعتمد عليه في إصلاح حال التعليم بجامع الزيتونة وترقيته.

وقد احتفل بولايته شيخاً للجامع يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى من هذه السنة في محفل علمي جليل، وألقى فيه الأستاذ خطبة بسط فيها القول على أحوال الجامع، وبين مبدأه في إصلاحه، ونقلت هذه الخطبة البليغة الصحف التونسية.

* **علمه وأدبه:**

شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم، ولما كان بيني وبينه من الصداقة النادرة المثال، كنا نحضر دروس بعض الأساتذة جنباً لجنب؛ مثل: درس الأستاذ الشيخ سالم أبي حاجب لشرح القسطلاني على البخاري، ودرس الأستاذ الشيخ عمر بن الشيخ لتفسير البيضاوي، ودرس الأستاذ الشيخ محمد النجار لكتاب «المواقف»، وكنت أرى شدة حرصه على العلم ودقة نظره متجليتين في لحظاته وبحوثه.

تقلب الأستاذ في مناصب التدريس، وقام بتدريس كتب عالية في جامع الزيتونة، فدرَّس «دلائل الإعجاز»، و«الشرح المطول» للتفتازاني، و«شرح المحلى لجمع الجوامع»، و«مقدمة ابن خلدون»، وهو اليوم يقوم بتدريس تفسير القرآن الكريم، و«موطأ» مالك بن أنس، و«ديوان الحماسة».

---

(١) سنة ١٣٥١هـ.

وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم وقوة النظر: صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة، وأذكر أنه كان يوماً في ناحية من جامع الزيتونة، ومعه أديبان من خيرة أدبائنا، وكنت أقرأ درساً في ناحية أخرى من الجامع، فبعث إلي بورقة بها هذان البيتان:

تألقت الآداب كالبدر في السحر   وقد لفظ البحران موجهما الدرر

فمالي أرى منطيقها الآن غائباً   وفي مجمع البحرين لا يفقد (الخضر)

انعقدت بيني وبينه سنة ١٣١٧ صداقة بلغت في صفائها ومتانتها الغاية التي ليس بعدها غاية، وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيراً، وأن يكون كل منا يعرف من سريرة صاحبه ما يعرفه من سريرته، فكنت أرى لساناً لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ ، وهمة طماحة إلى المعالي، وجداً في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال: ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه، وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم.

وعقب سفري إلى البلاد الشامية سنة ١٣٣١ بلغني خبر ولايته للقضاء، فأرسلت إليه أبياتاً تهنئة بهذه الولاية، وتذكيراً له بما كنت أعرفه فيه من حرصه على إصلاح القضاء والتعليم، ثم إبداء عظيم شوقي، وأسفي للفراق، وأذكر منها قولي:

أنسى ولا أنسى إخاءك إذ رمى   صرف الليالي بالنوى أشباحا

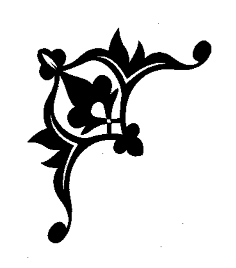
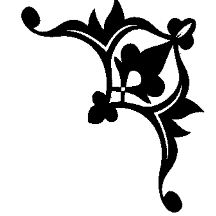
أسلو ولا أسلو علاك ولو أتت   لبنانَ تهدي نرجساً وأقاحا

أفلم نكن كالفرقدين تقارنا   والصفو يملأ بيننا أقداحا

*** مؤلفاته:**

للأستاذ حواش على «التنقيح» لشهاب الدين القرافي في أصول الفقه، ونقد علمي في الرد على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» تأليف علي أفندي عبد الرازق، وكتاب في أصول الإنشاء والخطابة، وله مؤلفات أخرى لم تطبع بعد.



علي الدرويش
من علماء تونس الفضلاء[1]

هو أبو الحسن علي بن يوسف بن أحمد الدرويش من «باجة» بلدة بالقطر التونسي.

ولد في شعبان سنة ١١٩٨، طلب العلم، فأخذ عن علماء عصره: الشيخ الطاهر بن مسعود، وشيخ الإسلام بيرم الثاني، والشيخ حسن الشريف. ولاه الأمير محمود باشا إماماً بمسجد «باردو» سنة ١٢٣٠، ثم تولى خطة القضاء سنة ١٢٣٢، فقام بها محمود السيرة نحو تسع عشرة سنة، ثم صار مفتياً سنة ١٢٥١، وأضاف إلى الفتوى التدريس بجامع الزيتونة عند وضع الترتيب الأحمدي، حتى وافاه الأجل في ذي القعدة سنة ١٢٦٢، ورثاه الشيخ محمد بيرم الرابع بقصيدة يقول في مطلعها:

هو الدهر يبري صائبات سهامه فيورد نفس المرء حوض حِمامه

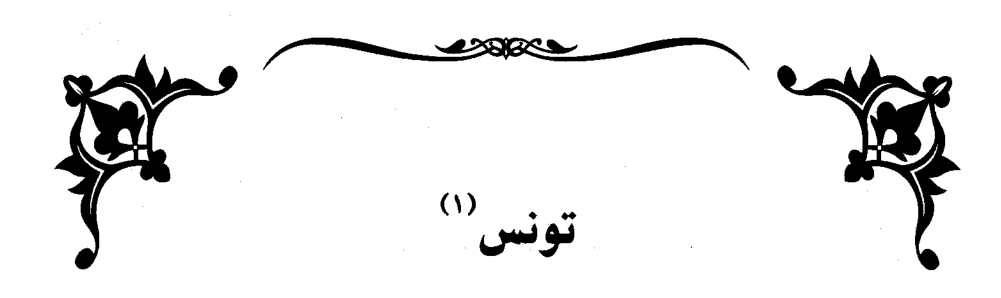
وكان صاحب الترجمة عفيفاً، متثبتاً فيما يجري بين يديه من القضايا، متيقظاً لما يقدم إليه من المراسلات التي يضع عليها ختمه، وترسل إلى نوابه في القطر، كتب بعض المتنسبين للإشهاد بين الناس مراسلة، وقدمها

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء العاشر من المجلد الثاني الصادر في ربيع الأول ١٣٤٩.

إليه ليضع عليها ختمه، فوجدها غير موافقة للشرع، فأبى ختمها، وردها إلى صاحبها، فأعادها ذلك الشاهد مراراً؛ رجاء أن تصادف ساعة غفلة من الشيخ، فيضع عليها ختمه، فلم يكن منه إلا أن يردها، ولما تكرر ورودها عليه، بعث إلى الشاهد قائلاً له:

«إني على بصيرة مما يرد عليَّ»، ولم يزد على ذلك.





تونس[1]

*** التعريف بتونس:**

المملكة[2] التونسية، واقعة بشمال القارة الإفريقية، يحدها شمالاً وشرقاً البحر المتوسط، وغرباً عمالة قسنطينة من بلاد الجزائر، وجنوباً الصحراء الكبرى في بعضها، وولاية طرابلس في بعضها الآخر المنحرف إلى الشرق.

ومساحتها مئة وثلاثون ألف كيلو متر مربع تقريباً، وهذه المساحة تساوي نحو الخمس من مساحة فرنسا.

وسكان هذه المملكة نحو ثلاثة ملايين نسمة، وهم بحسب أصولهم يرجعون إلى أجناس مختلفة، إلا أن السائد فيهم العنصر العربي، ومن كانوا من غير عنصر عربي؛ كالبربر، والترك، فقد أصبحوا عرباً لغة وعادات، فهم ما بين عرب خُلَّص، ومستعربين، فمن الحق أن تونس بلاد عربية شعباً وحكومة، وهي جديرة بأن تعد في مقدمة الشعوب والدول العربية.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد السابع عشر ـ ١٣٦٤هـ. وهي نص مذكرة الإمام بصفته رئيس (رابطة الدفاع عن أفريقيا الشمالية) إلى دول العالم.

(٢) مقالة الإمام قبل إعلان الجمهورية في تونس.

وقد بلغت تونس في العهود السالفة من المعارف والمدنية وقوة السلطان غايات عزيزة المنال، ولا أذهب في الحديث عن هذا السؤدد إلى عهود بعيدة كانت فيها المملكة التونسية مطلع العلماء الأعلام، ورجال السياسة العظام، ومحط رحال الأدباء والشعراء والكتاب، فذلك شأن من تكون غايته البحث عن تاريخ البلاد، وسيرِ رجالها؛ ليقرر حقائق، أو يستمد مفاخر، أو ينبه لمآخذ عبرة، وإنما غايتنا من هذه المذكرة عرض حالة تونس في عهد نهوضها بنفسها قبل الاحتلال الفرنسي، وعهد وقوعها تحت هذا الاحتلال؛ ليرى الناظر كيف كانت تونس تسير في السبيل الذي تسير فيه الأمم الناهضة، وكيف أتى الاحتلال الفرنسي وأخذ يرجع بها إلى وراء.

*** تونس قبل الاحتلال:**

كانت القيروان منذ الفتح الإسلامي العربي عاصمة إفريقية، ومنها خرج الجيش الذي فتح بقية بلاد المغرب، والجيش الذي فتح بلاد الأندلس، والجيش الذي فتح صقلية، وفي القرن السادس الهجري صارت عاصمة أفريقية مدينة تونس نفسها، وما زال الشعب التونسي يتمتع بحرية كاملة، ولواء الاستقلال يخفق على أرجاء تلك البلاد إلى أن امتدت إليها يد الإسبان سنة ٩٤٢هـ وتخلصت منهم على يد الدولة العثمانية سنة ٩٨١هـ، وصارت من ذلك الحين ولاية عثمانية، إلا أنها تتمتع بجانب عظيم من استقلالها الداخلي، إلى أن تولى أمرها المشير أحمد باشا باي عاشر أمراء الدولة الحسينية سنة ١٢٥٣، فنهض بهذه المملكة من الوجهة السياسية والعسكرية والعلمية.

اتجه إلى أن تكون الحكومة التونسية حكومة عربية إسلامية، يربطها

بالدولة العثمانية الاعتراف بسيادتها من جهة أنها دولة الخلافة، فسعى لدى الدولة العثمانية لتسقط على تونس المقدار المالي الذي كانت تؤديه لها سنوياً، معتذراً بأن القطر التونسي في حاجة إلى نفقات كبيرة تصرف في شؤونه العلمية والجندية والعمرانية.

وحوّل المراسلة بينه وبين الدولة العثمانية من اللغة التركية إلى اللغة العربية، معتذراً لها بأنه لا يحسن به أن يضع ختمه على كلام لا يفهم أسراره.

وأقبل على حال الجند، فنظم العساكر على الأسلوب الجديد، وأنشأ مدرسة حربية، واستدعى إليها معلمين من أبرع ضباط أوربا.

ووجّه عنايته إلى إعداد أسطول، فأعد مرسى حربية، وابتدأ بشراء بواخر وبوارج، وابتنى دار صناعة لإنشاء السفن، ومعملاً لصنع الأسلحة، ومستودعات للذخائر الحربية.

وأحدث لقب وزير في المناصب السياسية، فكان لحكومة تونس في عهده رئيس وزراء، ووزير داخلية، ووزير خارجية، ووزير حربية، ووزير بحرية، ووزير مالية.

وتولى بعده أخوه محمد باشا باي، فجرى على سيرة سلفه، ووضع لسياسة الحكومة دستوراً سمي لذلك العهد: «عهد الأمان»، وقرئ هذا الدستور في حفل عظيم حضره أعيان الأمة وعلماؤها، وسفراء الدول الأجنبية، في (٢٠ المحرم سنة ١٢٧٤ ـ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٧)، وأقسم الباي على أن يعمل بهذا القانون، ويجري في سياسة الحكومة على مقتضاه.

ويشتمل هذا الدستور على إحدى عشرة مادة، ونصها:

«**القاعدة الأولى**: تأكيد الأمان لسائر رعيتنا، وسكان إيالتنا، على اختلاف الأديان والألسنة والألوان، في أبدانهم المكرمة، وأموالهم المحرمة، وأعراضهم المحترمة، إلا بحق يوجبه نظر المجلس بالشورى، ويرفعه إلينا، ولنا النظر في الإمضاء، أو التخفيف ما أمكن، أو الإذن بإعادة النظر.

القاعدة الثانية: تساوي الناس في أصل قانون الأداء المرتب، أو ما يترتب. وإن اختلف باختلاف الكمية؛ بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته، ولا يحط على الحقير لحقارته، ويأتي بيانه موضحاً.

القاعدة الثالثة: التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف؛ لأن استحقاقه بوصف الإنسانية، لا لغيره من الأوصاف، والعدل في الأرض هو الميزان المستوي، يؤخذ به للمحق من المبطل، وللضعيف من القوي.

القاعدة الرابعة: إن الذميَّ من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه، ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانته، ولا تمتهن مجامعهم، ويكون لهم الأمان من الإذاية والامتهان؛ لأن ذمتهم تقتضي أن لهم مالنا، وعليهم ما علينا.

القاعدة الخامسة: لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع، ومصلحته تعم المجموع، ولا بد للإنسان من زمن لتدبير عيشه، والقيام على أهله، فلا نأخذ العسكر إلا بترتيب وقرعة، ولا يبقى العسكري في الخدمة أكثر من مدة معلومة، كما نحرره في قانون العسكر.

القاعدة السادسة: إن مجلس النظار في الجنايات إذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة، يلزم أن يحضره من نعينه من كبرائهم، تأنيساً لنفوسهم، ودفعاً لما يتوهمونه من الحيف، والشريعة توصي بهم خيراً.

القاعدة السابعة: إننا نجعل مجلساً للتجارة برئيس وكاتب، وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا أحبابنا الدول؛ للنظر في نوازل التجارات بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس، كما يأتي إيضاح تفصيله؛ قطعاً لتشعب الخصام.

القاعدة الثامنة: إن سائر رعايانا من المسلمين وغيرهم لهم المساواة في الأمور العرفية، والقوانين الحكمية، لا فضل لأحد على الآخر في ذلك.

القاعدة التاسعة: تسريح المتجر من اختصاص أحد به، بل يكون مباحاً لكل أحد، ولا تتاجر الدولة بتجارة، ولا تمنع غيرها منها، وتكون العناية بإعانة عموم المتجر، ومنع أسباب تعطيله.

القاعدة العاشرة: إن الوافدين على إيالتنا لهم أن يحترفوا بسائر الصنائع والخدم، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة، والتي يمكن أن تترتب مثل سائر أهل البلاد، لا فضل لأحد على الآخر، بعد الانفصال مع دولهم في كيفية دخولهم تحت ذلك كما يأتي بيانه.

القاعدة الحادية عشرة: إن الواردين على إيالتنا من سائر أتباع الدول، لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور والأجنَّة والأرضين، مثل سائر أهل البلاد، بشرط أن يتبعوا القوانين المرتبة، والتي تترتب من غير امتناع، ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد، ونبين بعد هذا كيفية السكن بحيث إن المالك يكون عالماً بذلك، وداخلاً على اعتباره، بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول».

وأنشأ هذا الأمير مجلساً بلدياً في مدينة تونس تحت رياسة مستشار الخارجية، وتولى هذا المجلس تنظيم المدينة، وإصلاح طرقاتها، وتنوير

شوارعها، وجلب أدوات الطباعة العربية إلى البلاد.

وتولى الإمارة بعده أخوه محمد الصادق باي، وشد أزره الوزير المصلح خير الدين باشا، فألَّف مجلساً أعلى يتألف من ستين عضواً من الوطنيين للنظر في مصالح الوطن.

وسنّ للفلاحة قانوناً راعى فيه مقتضيات حال القطر. ووزَّع الأراضي الحكومية على صغار الفلاحين، ووضع أول مجلس صحي لمراقبة الأمراض الوبائية.

وسعى في تقدم الصناعات الأهلية، وتوسيع دائرة التجارة الوطنية.

ونظَّم مناهج التعليم بجامع الزيتونة قرينِ الجامع الأزهر في كل ما يدرَّس فيه من العلوم الدينية والعربية، وأنشأ بجانبه المكتبة التي تدعى: «المكتبة الصادقية».

وأسس المدرسة الصادقية، وهي أول معهد أنشئ لدراسة العلوم العصرية واللغات الأجنبية، وصدرت في عهده سنة ١٢٧٧هـ صحيفة «الرائد التونسي»، وهي الصحيفة الثالثة العربية للصحيفتين الأخريين: الوقائع، والجوائب.

وأطلق هذا الأمير على الحكومة اسم: الدولة، وأعطى لنفسه لقب: الملك، يوجد هذان اللقبان في نصوص القانون المسمى بقانون الدولة.

يرى الناظر من هذه الشذرات الموردة من تاريخ تونس: أنها أخذت منذ عهد المشير أحمد باشا باي تسير سير الأمم المتيقظة، وأنها قطعت في إصلاح شؤونها السياسية والعسكرية والعلمية والعمرانية شوطاً يشهد بأنها تستطيع القيام بواجبات استقلالها بنفسها، وأنها ليست في حاجة إلى ما يسمونه: حماية.

*** كيف وقع الاحتلال الفرنسي؟**

بعد أن تم لفرنسا احتلال الجزائر، اتجه نظرها إلى احتلال تونس، وحصلت على موافقة بعض الدول في المؤتمر الذي عقد في «برلين».

ويقال: إن بسمارك أغراها باحتلال تونس بقصد إيقاع الشحناء بينها وبين إيطاليا التي كانت حريصة كل الحرص على ائتلاف هذا القطر.

ادعت فرنسا أن بعض العربان التونسيين الذين يقيمون بالقرب من حدود الجزائر يعتدون على بعض جيرانهم من الجزائريين، واتخذت هذه الدعوى وسيلة لاحتلال المملكة بأسرها، وأجلبت على تونس بخيلها ورجلها، وتجاوزت بها إلى داخل البلاد، وكانت الحكومة التونسية تسجل وتتشكى وتعارض بأنها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم في نفس الأمر إنما اتخذوا وسيلة فقط[١].

*** المعاهدة كيف أُمضيت؟**

زحفت فرنسا بجنود من ناحية الجزائر، وزحفت بجند آخر من ناحية «بنزرت» حتى وصل هذا الجند إلى العاصمة، وأحاط بقصر الملك، وفي هذه الحال قدمت إليه معاهدة ليضع إمضاءه عليها، فتوقف الباي عن الإمضاء، وطلب من نائبي فرنسا: قنصلها، وقائد عساكرها أن يمهلاه مدة ليتأمل فيما تضمنته المعاهدة من الشروط، فأبيا له ذلك، فجمع الباي رجال مجلس الشورى، وكان ممن عارض في إمضاء المعاهدة: السيد العربي زروق رئيس البلدية، ونصح للباي بأن لا يوقع عليها، وقال له: إن ما تخشاه من عدم الإمضاء سيقع لا محالة، فالتمسك بعدم الإمضاء أشرف وأسلم، ولكن

(١) «صفوة الاعتبار» للشيخ محمد بيرم.

الباي رأى نفسه مضطراً إلى توقيع المعاهدة، فأمضاها، وكانت المعاهدة مشتملة على عشرة مواد، وتعريبها:

«إن دولة جمهورية فرنسا، ودولة باي تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحبير المخرب الذي وقع قريباً في حدود الدولتين، وفي شطوط تونس، وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة مودة وجوار حسن، فاعتمدوا على ذلك، وعقدوا معاهدة في نفع الجهتين المهمتين، فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرنسية، سمى وكيله (مسيو الجنرال بريار) الذي يتفق مع حضرة الباي السامية على الشروط الآتية:

أولاً: المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية وحضرة الباي يتحتم تقريرها واستمرارها.

ثانياً: ليسهل على الدولة الجمهورية إتمام الطرق للتوصل إلى المقصود الذي يعني الجهتين العظيمتين، فحضرة الباي يرضى بأن الحكم العسكري الفرنسي يضع العساكر في المواضع التي يراها لازمة؛ لتقرر وترجع الراحة والأمان في الحدود، والشطوط، وخروج العساكر يكون عندما يتوافق الحكم العسكري الفرنسي والتونسي على أن الدولة التونسية تقدر على تقدر الراحة.

ثالثاً: دولة الجمهورية الفرنسية تتعهد لحضرة الباي بأن يستند عليها دائماً، وهي تدافع عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما، إما في نفسه، أو في عائلته، أو فيما يجير دولته.

رابعاً: دولة الجمهورية الفرنساوية تضمن في إجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الأوروباوية.

خامساً: دولة الجمهورية الفرنساوية تحضر نحو حضرة الباي وزيراً مقيماً لينظر في إجراء هذه المعاهدة، وهو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرنسية، وذوي الأمر والنهي التونسيين، وفي كل الأمور المشتركة بين المملكتين.

سادساً: إن النواب السياسيين، والقناصل الفرنسيين في الممالك الخارجية يتوكلون ليحموا أشغال تونس، وأشغال رعيتها، وفي مقابلة هذا، فحضرة الباي يتعهد بأن لا تعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية، ومن غير أن يحصل على موافقتها من قبل.

سابعاً: دولة الجمهورية الفرنسية، ودولة حضرة الباي أبقوا لأنفسهم الحق في أن يؤسسوا ترتيباً في المالية التونسية؛ ليمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسي العام، وهذا الترتيب يضمن في حقوق أصحاب الدين التونسي.

ثامناً: إن غرامة الحرب يغصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط، وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد شروطاً على كميتها، وكيفية دفعها، ودولة حضرة الباي تضمن في ذلك.

تاسعاً: للمدافعة على منع إدخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرنسية، فدولة باي تونس تتعهد بأن تمنع دخول الأشياء المشار إليها من جزيرة «جربة»، ومرسى «قابس» وسائر المراسي الجنوبية في المملكة.

عاشراً: إن هذه المعاهدة توضع لدى رضاء دولة الجمهورية الفرنسية، وترجع في أقرب مدة ممكنة لحضرة الباي السامية.

حرر في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد

الإمضاء: محمد الصادق باي، والجنرال بريار

*** كيف كان وقع هذا الاحتلال في نفوس الوطنيين:**

قابل الوطنيون هذا الاحتلال بحزن وجزع بالغين، وقامت بعض المدن والقبائل في وجه جيش الاحتلال، واستمر دفاعهم حيناً، ولكنهم لم يجدوا مدداً يساعدهم على إطالة مدة الحرب، فاستطاع جيش الاحتلال أن يلجئهم بكثرة عدده، وإطلاق مدافعه إلى التسليم.

*** معاهدة المرسى:**

رأت فرنسا أن معاهدة «باردو» لا تسمح لها بأن تبسط نفوذها في كل شأن من الشؤون الداخلية، فعزرتها بمعاهدة ثانية، وقدمتها إلى المرحوم علي باي للتوقيع، وتعريبها:

١ ـ **الفصل الأول**: لما كان مراد حضرة الباي المعظم أن يسهل للحكومة الفرنسية إتمام حمايتها، تكفل بإجراء الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إجرائها.

٢ ـ **الفصل الثاني**: الحكومة الفرنسية تضمن قرضاً يعقده حضرة الباي المعظم لتحويل، أو لدفع الدين الموحد البالغ ١٢٥ مليون فرنك، والدين السائر الذي لا يمكن أن يتجاوز قدره ١٧٥٥٠٠٠٠فرنك، ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك، وقد تعهد حضرة الباي المعظم أن لا يعقد قرضاً في الاستقبال لحساب الإيالة التونسية دون الحكومة الفرنسية.

٣ ـ **الفصل الثالث**: يأخذ حضرة الباي من مداخيل الإيالة أولاً: المبالغ اللازمة للقيام بمقتضيات القرض الذي تضمنه فرنسا، ثانياً: راتبه السنوي الملكي، وقدره ١٢٠٠٠٠٠ فرنك، وما زاد على ذلك يعين بمصاريف إدارة الإيالة ودفع مصاريف الحماية.

٤ ـ **الفصل الرابع**: هذا الاتفاق يكمل ويثبت المعاهدة المنبرمة في ١٢ سنة ١٨٨٢ فيما يحتاج منها إلى التثبيت والتكميل، ولا تغير له التراتيب التي سبق وضعها فيما يتعلق بتقدير الغرامة الحربية.

٥ ـ **الفصل الخامس**: يعرض هذا العقد على الحكومة الفرنسية لتوقيعه، وتعاد حجة التوقيع إلى حضرة الباي المعظم بما أمكن من السرعة، وإيذاناً بصحة ما تقدم.

حرر هذا الرسم، وختمه الموقعان بختمهما، وكتب في المرسى ٨ يونية سنة ١٨٨٣.

لا نريد بسط الكلام في هذا الغرض، وندع البسط إلى مقام أفسح من هذا المقام، وإنما نسوق أمثلة بقدر ما يقتضيه الحال، وعسى أن يلم بها القارئ، فتوقد في نفسه غيرة تهزه إلى العطف على ذلك الشعب، ومؤازرة الساعين بالطرق الحكيمة لأن تعاد إليه حريته، حتى يعيش في كرامة وسلام.

*** الاحتلال ومناصب الحكومة الرئيسية وغير الرئيسية:**

كان لتونس قبل الاحتلال وزراء من الوطنيين كما أشرنا إليه آنفاً، ولما احتلت فرنسا البلاد، جعلت وزير الخارجية سفيرها «المقيم العام»، وعينت للحربية، والبحرية، والمالية، والزراعة، والتجارة، والأشغال، والبريد، والمعارف رؤساء فرنسيين، ولم تسمح للوطنيين إلا بوزارة الداخلية، ولكنها أحدثت بجانب وزير الداخلية وظيفة «كاتب عام»، ويتقلد هذه الوظيفة فرنسي، ومكتبه بالقرب من مكتب الوزير، ويعرض عليه كل ما هو من اختصاص وزير الداخلية، وله القول الفصل في كل صغير وكبير.

وسمحت بعد سنين طويلة بأن يكون وزير العدل وطنياً، ولكنها وضعت

له وكيلاً فرنسياً هو صاحب الرأي النافذ في إدار شؤون هذه الوزارة.

ووضعت إدارة المحافظة في أيدي فرنسيين، فرئيس الشرطة، ومراقب الشرطة، والمكلف بالإبعاد والصحافة كلهم فرنسيون.

ورضيت بأن يكون رئيس المجلس البلدي وطنياً، ولكنها جعلت له وكيلين فرنسيين، والوكيل الفرنسي في لغة الاحتلال هو الرئيس الذي يملك الرأي دون من سواه.

لم تكتف حكومة فرنسا المحتلة بتولي المناصب الرئيسية، حتى ملأت الدوائر الحكومية بصغار الموظفين من الفرنسيين، وأتت إلى المملكة، وقسمتها ١٨ مديرية، وولت في كل مديرية فرنسياً يدعى: «المراقب»، وهو الذي يسيطر على المديرية كما يشاء.

*** عدم التسوية بين الوطنيين والفرنسيين في المرتبات:**

قد تكون وظيفة الفرنسي ووظيفة الوطني متساويتين في الدرجة، متماثلتين في العمل، ويتفاوتان في المرتب تفاوتاً واسعاً، بحيث يزيد مرتب الفرنسي على مرتب الوطني زيادة فاحشة، ونذكر في سنة ١٣٣٩ بدا لمدير المعارف في ذلك العهد أن يجعل مرتبات الموظفين في إدارته متساوية، لا فرق بين فرنسي وتونسي، بناء على أن الاتحاد في العمل يقتضي ذلك، وأصدر بذلك قراراً أبلغه الوطنيين، ولكن حزب الاستعمار من الفرنسيين، ونوابهم في المجلس الشورى غضبوا لهذا القرار، وأصروا على إلغائه، فلم يكن من إدارة المعارف إلا أن أبطلت هذا القرار قبل إنفاذه.

*** الاحتلال ومالية الحكومة:**

تقرر ميزانية تونس بوزارة الخارجية في فرنسا، وترسل إلى تونس

للتنفيذ، وإذا كانت تعرض على المجلس الشوري الذي أحدثته من مدة غير بعيدة، فإن رأيه استشاري فقط، على أن أكثرية أعضائه من الفرنسيين.

ويدلكم على أن المالية لا تقرر على مقتضى المصالح الوطنية كما هو الواجب: أنها قررت في ميزانية سنة ١٩٢٢ منح مليونين من الفرنكات إعانة لإقامة المؤتمر الإفخارستي الكاثوليكي، وحاول بعض أعضاء المجلس مناقشة الحكومة في هذا التبرع، فكان جوابها المنع من المناقشة في هذا الموضوع؛ حيث إن هذه الإعانة مقررة من وزارة الخارجية، فاحتج بعضهم على هذا العمل، ورددت الصحافة التونسية هذا الاحتجاج، فلم تجد أذناً واعية.

*** الاحتلال وأراضي الدولة:**

حصرت فرنسا أراضي الحكومة، وأنشأت لها إدارة فرنسية تسمى: «إدارة الفلاحة»، وفوضت إليها بيع هذه الأراضي قطعاً للفرنسيين، فصارت تبيعها لهم، ومقسَّط أثمانها على عشر سنين، وتأبى أن يكون البيع بالمزايدة؛ خشية أن يزاحمهم فيها الوطنيون.

*** الاحتلال والأوقاف:**

قررت عدم بيع أراضي الأوقاف بالمزاد العلني، وأذنت لإدارة الفلاحة بشرائها لنفسها بأثمان زهيدة؛ لتوزعها على المعمرين الفرنسيين بأثمان زهيدة كذلك، ولما صنعته في أراضي الحكومة وأراضي الأوقاف أصبح معظم أملاك الحكومة وأراضي الأوقاف ملكاً للفرنسيين.

*** الاحتلال والقضاء:**

في تونس محاكم شرعية، وفيها محاكم أهلية تتولى فصل القضايا بين

الوطنيين، وأنشأت فرنسا سنة ١٨٨٤م ـ أي: بعد الاحتلال بنحو ثلاث سنين ـ محكمة فرنسية للفصل في جميع القضايا التي تقع بين الأوربيين، أو بين الوطنيين والأوربيين، سواء أكان الوطنيون مدعين، أو مدعى عليهم، ولهذا المحكمة فروع في نواحي القطر، والحكام في المحكمة الكبرى (التريبونال) وفروعها كلهم فرنسيون، ويسميهم رئيس الجمهورية الفرنسية، ويحكمون بقوانين فرنسية، وباسم الدولة الفرنسية.

*** الاحتلال والجندية التونسية:**

لما احتلت فرنسا تونس، ألغت المدرسة الحربية التي أسسها المشير أحمد باي، ولم تمكن الحكومة التونسية من أن ترسل طلاباً إلى فرنسا أو غيرها لتلقي فنون الحرب، ولهذا لا يوجد في الجنود الوطنيين متعلم في مدرسة حربية، ولا يتجاوز التونسي رتبة «يوزباشي».

استمر التجنيد في تونس، وأخذت حكومة الاحتلال تضم الجنود التونسيين إلى الجيش الفرنسي الذي هو تحت إمرة قائد الاحتلال، وإنما تركوا للباي بضع مئات من الجنود التونسية يسمون: «الحرس الملكي».

ولا تبالي الحكومة أن تسوق الجنود التونسيين إلى حروب خارج المملكة التونسية، كما أرسلت منهم فرقاً إلى «مدغشكر» سنة ١٨٩٥ ميلادية، وأرسلت قسماً منهم إلى «التونكين» على حدود «يونان فو» بالصين، وساقت فرقاً منهم إلى محاربة الألمان في الحرب الماضية.

*** الاحتلال والتعليم الديني والمدني:**

عرفت فيما أسلفنا أن وزير المعارف في تونس فرنسي، ولهذا الوزير التصرف المطلق في التعليم العام والفنون المستظرفة، فإليه يرجع النظر في

جميع المعاهد العلمية، ومديرو المدارس الحكومية كلهم فرنسيون؛ كالمدرسة الصادقية، والمدرسة العلوية، والمدرسة العليا للآداب العربية.

وتعمل حكومة الاحتلال على تضييق دائرة التعليم ما استطاعت، فلا يوجد في المملكة كلية للطب، ولا كلية للهندسة، ولا مدرسة للصنائع أو الكيمياء أو الطبيعيات، ولا يبرع من التونسسين في علم من هذه العلوم إلا الذين يرحلون إلى أوربا، ويحوزون على الشهادة العليا من إحدى جامعاتها، ومن العجب أن تكون المدارس القرآنية الأهلية تابعة لوزير المعارف، وهو فرنسي، وقرأنا في جريدة «مرشد الأمة»، وهي جريدة تصدر بتونس: أن أهل «باجة» طلبوا رخصة فتح مدرسة قرآنية، فأجابهم ذلك الوزير بالحرمان.

وبقي جامع الزيتونة قرينُ الجامع الأزهر مدة بعد الاحتلال تابعاً في إدارته إلى وزير المعارف الفرنسي، ثم ألحقوه بوزارة الداخلية، ولا بد من عرض شؤونه على الكاتب العام، ووزارة الداخلية والكتابة العامة متحدان في الأعمال.

*** الاحتلال وحرية الصحافة:**

في تونس صحف عربية، ولكنها لا تملك من الحرية ما تملكه صحف الجالية الفرنسية بتونس، وقد انتقد المرحوم محمد بك فريد في رحلته التونسية الضغط على الصحافة العربية هنالك، وجاهر بذلك (المسيو بادو) وكيل الكاتب العام، فأجابه: «بأن الأهالي شديدو الحمية والشكيمة، ولو أطلق لهم عنان حرية الجرائد، لثاروا، وقاموا في وجه الحكومة الفرنسية».

*** الاحتلال واللغة العربية:**

لغة الكتابة في القطر العربية الفصحى، ولغة التخاطب هي العربية مشوبة

بانحراف كما وقع لغيرها من اللهجات العربية الحاضرة، ولكن حكومة الاحتلال هضمت حق اللغة العربية؛ إذ جعلت حظها في التعليم بمدارس الحكومة دون حظ اللغة الفرنسية، وجعلت الفرنسية كاللغة العربية لغة رسمية، وجرت على أن لا يقبل في إدارة البريد برقية إلا أن تكون مكتوبة باللغة الفرنسية.

*** مجلس الشورى في تونس:**

أنشأت فرنسا بتونس سنة (١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٥م) مجلساً شورياً للنظر في مصروفات الدولة، ويتألف هذا المجلس من فرنسيين وتونسيين، والأعضاء الفرنسيون ٥٦، والأعضاء التونسيون ٤١، من بينهم ٧ من اليهود، وآراء هذا المجلس استشارية فقط، لا تتقيد بها الحكومة، واستثنت من هذا فصولاً من المالية لا تعرض على هذا المجلس؛ كمصروفات الدَّين التونسي، ومرتب الوزير المقيم وأعوانه، ومصاريف العدلية الفرنسية التونسية، ومصاريف الأمن العام.

*** غطرسة المعمرين واحتقارهم للوطنيين:**

يرى أولئك المعمرون أنهم أرفع من الوطنيين في الإنسانية درجات، ويعاملونهم معاملة السادة للخدم، وتأبى هذه الغطرسة إلا أن تظهر في أقوالهم وأعمالهم؛ كأنهم يفهمون أن الاحتلال لا يقف على أقدام راسخة، ولا يملكون به السيادة المطلقة، إلا إذا أشعروا الوطني بأنه في منزلة محتقرة؛ حتى لا يطمع في أن يقف بجانبهم موقف الإنسان من أخيه الإنسان، وأسوق مثلاً على هذا: أن الحكومة عندما أنشأت مجلس الشورى الذي أسلفنا الحديث عنه، أظهر هؤلاء المعمرون ـ وهم أغلب أعضاء هذا المجلس ـ نفوراً من أن يجتمعوا

مع الأعضاء الوطنيين في قاعة واحدة، ويتبادلون الرأي وجهاً لوجه، فبعثوا وفداً منهم إلى «باريز» ليبلغ حكومتهم استياءهم من أن يجلسوا مع الوطنيين في مكان واحد، بل طلبوا إلغاء مشاركة الوطنيين لهم في الشورى، ولكن المقيم العام بتونس أراد تخفيف ثورتهم، فقسم الاعضاء قسمين: معمرين، ووطنيين، وخصص لكل قسـم مكاناً، وأقام حاجزاً بين مقاعد المستعمرين والوطنيين.

وأذكر أن (مسيو بارجو) وكيل الدولة في المملكة الفرنسية بتونس، قال وهو يدافع في قضية اعتدى فيها أحد المعمرين على وطني: «إن هؤلاء المعمرين قد لوثوا بجريمتهم سياسة فرنسا، ودنسوا وجهها الجميل، وأسقطوا سمعتها بين الأقوام الذين أتينا لحمايتهم».

*** الاحتلال والتجنس بالجنسية الفرنسية:**

ليس الوطنيون في نظر الحكومة المحتلة بأهل لأن يمنحوا الحرية التي يتمتع بها الفرنسيون، ولكنها فتحت باب التجنس بالجنسية الفرنسية على أن يكون للمتجنس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسي الأصل، فعلت هذا ترغيباً للوطنيين في الخروج عن قوميتهم العربية إلى الجنسية الفرنسية، ولكن الوطنيين المسلمين أدركوا أن هذا التجنس يسلخهم من دينهم، ويطعن في قوميتهم ووطنيتهم، فأحجموا عنه إلا نفراً قليلاً استهوتهم منافعه العاجلة، فأثاروا سخط الأمة عليهم، وصارت تنظر إليهم بإنكار وازدراء، وأصرت على أن لا يدفنوا في مقابرها حتى اضطرت الحكومة، ورسمت لهم مقبرة خاصة بهم.

*** الاحتلال وجرح عواطف الوطنيين الدينية:**

معلوم أن الحكومة الفرنسية لا دينية، ولكنها تعمل في البلاد المحتلة

كحكومة مصبوغة بالمسيحية الكاثوليكية، وأذكر أن مناقشة جرت بالبرلمان الفرنسي في فصول من الميزانية الفرنسية تتضمن العناية بجمعيات التبشير، فقام وزير الخارجية، وقال ما معناه: «إن فرنسا غير متدينة داخل حدودها، وإنها متدينة في الخارج».

والوطنيون لا يأخذون على فرنسا أن تكون مصبوغة بالمسيحية خارج بلادها، وإنما ينكرون عليها إجراءات تتحيز فيها للمبشرين، وتجرح بها إحساس المسلمين، أو تهضم بها حقاً من حقوقهم، ومثال هذا: أنها نصبت في أشهر ميدان من ميادين العاصمة تمثالاً للكردينال «لا فيجري» شاهراً صليبه، رافعاً إياه فوق رؤوس المارين من العرب المسلمين، ومثال آخر: هو أنها عينت بالمؤتمر الإفخارستي الكاثوليكي الذي قام في تونس سنة ١٩٣٠، وساعدته بمليوني فرنك من خزينة الحكومة التونسية، علاوة على ما أرصدته إدارة الأشغال العامة للإنفاق على رصف الطرقات، ونصب المظلات للوافدين بمكان انعقاد المؤتمر.

*** جهاد التونسيين في سبيل قضيتهم:**

لم يغمض التونسيون أعينهم عن سالف مجدهم، ويستلموا استسلام الشعب الميت لما يلاقونه من عهد الاحتلال من عسف، بل كانوا يقابلون ذلك بالغضب والإنكار بما استطاعوا، ولهم في جهادهم مواقف حفظها التاريخ، وكم قاموا بمظاهرات تعرضوا بها للنار والحديد، وابتلوا بالاعتقال والسجن والإبعاد إلى أطراف القطر وخارجه، وكانوا يحتملون ذلك الأذى، ويتلقونه بالتجلد والتصميم على العمل لخير وطنهم.

ولا أطيل الكلام بسرد الوقائع في هذا الغرض، وأقتصر على حديث

الحزب الدستوري ومطالبه الشاهدة بصدق ما وصفنا به الحكم في عهد الاحتلال.

في سنة (١٣٢٩هـ ـ ١٩١٩م) تألف الحزب الحر الدستوري، وقام هذا الحزب بمطالب قدمها إلى جلالة الملك، والسفير الفرنسي، يقصد بها تخفيف وطأة الاحتلال، وهي أقصى ما يمكن أن تطالب به أمة يحيط بها استبداد دولة قوية من كل ناحية، ونص هذه المطالب:

١ ـ **المادة الأولى**: مجلس تفاوضي يتألف على التساوي من نواب تونسيين وفرنسيين معينين بالانتخاب العام، يملك حق عرض المسائل على المفاوضة، وله سلطة مالية غير محدودة.

٢ ـ **المادة الثانية**: مسؤولية الحكومة أمام هذا المجلس.

٣ ـ **المادة الثالثة**: التفريق بين السلط: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية.

٤ ـ **المادة الرابعة**: قبول التونسيين في كل الوظائف الإدارية بشرط الكفاءة.

٥ ـ **المادة الخامسة**: المساواة التامة في مرتبات الموظفين الذين يشغلون منصباً واحداً بدون ميز.

٦ ـ **المادة السادسة**: تشكيل مجالس بلدية بالانتخاب العام في كافة مدن المملكة.

٧ ـ **المادة السابعة**: حرية الصحافة والاجتماعات والمؤسسات.

٨ ـ **المادة الثامنة**: التعليم الإجباري.

٩ ـ **المادة التاسعة**: مشاركة التونسيين في شراء أراضي الاستعمار وأملاك الدولة.

ورأت فرنسا أن هذه المطالب ما يخالف شروط الحماية؛ حيث إن

العميد أجاب الوفد الذي قدم له المطالب بجواب جاء فيه: «إن كلمة دستور التي تعودتم استعمالها، ربما يكون تفسيرها بمرادفها الفرنسي منافياً لأصول الحماية المؤسسة طبق معاهدات وقعت بين سمو الباي والحكومة الجمهورية، وذلك يؤدي إلى وجود مجلس أمة وحكومة مسؤولة أمامه، وهذان الأمران يخالفان المعاهدات الموجودة بين الدولتين».

وما زالت الحركات السياسية الوطنية في تونس تنهض مرة بعد أخرى، وتردد مطالبها على آذان الحكومة، وتعقد مظاهرات، وتقدم احتجاجات عند كل تشريع أو تصرف يجحف بحقوق الأمة، حتى غشيتها هذه الحرب القائمة، فوقف زعماء تلك الحركات يرتقبون عواقبها، ويرجون انتصار الحرية على الاستبداد، والعدل على الجور، ورأوا الظروف في هذه الأيام مساعدة على مواصلة السعي، فقاموا يجاهدون في سبيل قضيتهم، وما هي إلا أن تنال تلك البلاد حقوقها كاملة.

*** أهداف هذه المذكرة:**

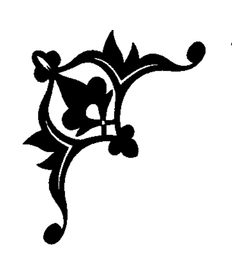
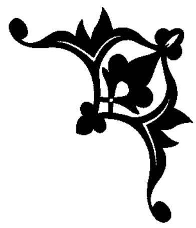
تذكر الرابطة دول الحلفاء الذين قرروا في ميثاق الأطلنطي إنقاذ الشعوب الواقعة تحت وطأة الاستبداد، بأن تونس من الشعوب التي اعترفت الدول من قبل باستقلالها، كما وقع في مؤتمر «أيلس لا شابيل» الذي انعقد في بلجيك سنة ١٨١٠م، وهي اليوم تقاسي من صنوف الاضطهاد والحرمان من الحقوق الضرورية لحياتها السياسية والاجتماعية ما تذوب له القلوب كمداً وحسرة.

وتذكرة الرابطة دول الاتحاد العربي بأن تونس عربية شعباً وحكومة، فلا فرق بينها وبين العراق وسوريا وفلسطين وغيرها من البلاد العربية في

جنسيتها العربية، وثقافتها التي تؤهلها لأن تقف في صفوفهم، وتكون لبنة في بناء اتحادهم.

وتذكر الرابطة حكومة فرنسا الحرة بأن الشعوب المغلوبة على أمرها، قد انتقلت إلى طور جديد، واتجهت إلى الجهاد في حريتها بتصميم، فإن أراد الفرنسيون الأحرار أن يكونوا براء من تبعة ما سردناه من الحقائق في تصوير حال الشعب التونسي في عهد الاحتلال، فلينظروا إلى تونس بالمرآة الصافية، ويقدروا ما يشهدونه فيها من كفاية لأن تدير شؤونها بنفسها، فقد حظيت باستقلالها شعوب ليست بأفضل منها مدنية، ولا أرقى ثقافة، ولا أدرى بمذاهب السياسة.



سَالم بوحَاجب
آيَة من آيَات العبقريّة[1]

نعت إلينا الصحف التونسية فضيلة أستاذنا الشيخ سالم أبي حاجب واسطة عقد العلماء، ورئيس المحكمة الشرعية المالكية بالديار التونسية، فكان نعيه لدى العارفين بمقامه الأسنى كقبس من نار تذوب له القلوب لوعة، وتتساقط له العبرات أسفاً.

كان الفقيد ـ رحمه الله ـ آية من آيات العبقرية، وأحد العلماء الذين لا تجود بهم يد الأيام إلا في أوقات معدودة، فلا جرم أن أنثر على بساط هذا الاحتفال الجامع شذراً من آثار حياته الزاهرة خدمة للعلم والأدب والتاريخ، وإنَّ في سيرة العظماء من الرجال لعبرة لأولي الألباب.

---

(١) مجلة «المنار» ـ الجزء السادس من المجلد الخامس والعشرين (ص٤٧٥) وما بعدها. القاهرة.

قدمت المجلة كلمة الإمام محمد الخضر حسين بقولها:

أقام طلاب العلم من جاليات شمال أفريقية حفلة بالجامع الأزهر مساء يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر الجاري؛ لتأبين المأسوف عليه الأستاذ الكبير الشيخ سالم أبي حاجب مفتي الديار التونسية.

افتتحت الحفلة بقراءة آيات من الذكر الحكيم، ثم قام محرر هذا المقال، وألقى خطبة في نشأة الفقيد، ومواهبه السامية، وعلمه الغزير.

ولد الفقيد حوالي سنة ١٢٤٤ بقرية من قرى الساحل تسمى: «بنبلة»، ثم ارتحل منها عندما بلغ سن التعليم إلى حاضرة تونس لتلقي العلم بجامع الزيتونة الأعظم، ولم يلبث أن سطع بين جدران ذلك المعهد شعاع ألمعيته ونبوغه، وصلاحيته في أندية العلم والأدب، ولا سيما إذ كانت له في صناعة القريض براعة فائقة، وفي نقده الشعر ذوق لا يقل عن ذوق العربي الصميم.

ترقى الفقيد في مدارج العلم حتى تقلد وظيفة التدريس بالمعهد الزيتوني، درس من علوم الشريعة والعربية كتباً عالية؛ مثل «شرح العضد على مختصر ابن الحاجب»، و«شرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري»، و«الشرح المطول للسعد التفتازاني». وكان يجلس لدرس هذه الكتب وغيرها على منصة التحقيق، ويخوض عبابها بنظر مستقل، وينطق فيها بلهجة مجتهد نحرير، فلا ينتهي من تقرير موضوع إلا بعد أن يعقد لما يجري فيه من الخلاف محاكمة يدخل إلى القول الفصل فيها من باب الحرية والإنصاف.

ولِما وضع في فطرته من حبِّ البحث، والغوص في أغوار المسائل، كان يتلقى أسئلة التلاميذ في الدرس بصدر رحب، وكثيراً ما يغمر الباحث النجيب بعبارات الثناء؛ تشجيعاً له على البحث، وأخذاً بيده إلى أن يسير مع أصحاب الآراء والمؤلفين على مقتضى حكمة من يقول: «هم رجال، ونحن رجال».

ولعلمه الراسخ، وعبقريته البارزة، كان بعض أقرانه مثل: الأستاذ الشيخ مصطفى رضوان يقرر في درسه عازياً شيئاً من الأفهام التي انفرد بتحقيقها، وكثيراً ما يورد الفقيد في مجالسه أو دروسه في صدد الاستشهاد على بعض المعاني اللغوية عبارة «القاموس» بنصها، حتى ظن كثير من أهل العلم أنه يحفظه

على ظهر قلب. وأغلب مسائل «الشرح المطول»، و«المغني» لابن هشام، و«شرح السيد على المفتاح»، و«شرح الدماميني على التسهيل». تجري على طرف لسانه مهما تدعو الحاجة إلى الاستشهاد بشيء منها.

ولم يكن الأستاذ ممن يسارع إلى الاعتقاد بصدق من يخرج في زي المجذوبين، أو يدعي أنه من أرباب الولاية والكرامة، وظهر منه هذا الخلق في مجلس بعض رجال الدولة، فقال له: اعتقد ولا تنتقد. فقال الأستاذ: ليس الاعتقاد مما تعتنقه النفس بمجرد الاختيار، وإنما هو من قبيل العلم الذي لا يرتسم فيها إلا بمؤثر من حجة وبرهان.

وكان يحارب الخرافات، والآراء السخيفة، والأقوال المسندة إلى الشريعة بمجرد الدعوى، أو بأحاديث غير ثابتة، وكان يبدي رأيه بكل صراحة، وإن صادم المعروف بين شيوخ عصره؛ كإنكاره لوجود جبل قاف، ومشاهدة الجن بعين الباصرة، ويرى أن ما يزعم من ذلك إنما هو من قبيل تأثير الخيال.

أحرز الفقيد بين رجال الدولة مكانة إكبار وإجلال، وانتظم له هذا الإقبال إذ كان من أولي النظر الواسع في شؤون الاجتماع، وما تقتضيه المدنية الراقية، وكذلك كانت دروسه في علوم الشريعة مملوءة بالبحث عن أسرارها من حيث المطابقة لما تستدعيه مصالح الشعوب. ومن هذا الوجه كان للأستاذ حياتان: علمية، وسياسية، فاتخذه الوزير خير الدين باشا من مساعديه في تنظيم التعليم، وإصلاح الإدارة قبل الاحتلال، وتقلد وظيفة العمل بإدارة المال، مضافة إلى وظيفة التدريس بجامع الزيتونة.

سافر الأستاذ إلى إيطاليا مبعوثاً من طرف الحكومة التونسية قبل الاحتلال؛

لينوب عنها في قضية أقامتها على ورثة أحد قابضي أموالها المدعو «نسيم»، وأقام هنالك زمناً واسعاً، التقى فيه خلاله بكثير من علمائها، ودارت بينه وبينهم محاورات علمية، وكانوا يلقون عليه أسئلة فيما يشكل عليهم من بعض الأحكام الإسلامية، فيذهب في الجواب عنها إلى طريق النظر الفلسفي، حتى تقع أجوبته لديهم موقع القبول والتسليم. وكان الأستاذ يقول: إن هذه الرحلة مجموعة عنده في كتاب. وقصّ علينا أنه دخل إلى بعض المكاتب الحاوية لكتب عربية، فتناول كتاباً منها، فكان أول جملة وقع عليها بصره: «كان العرب إذا خطبهم لاعب الشطرنج، منعوه، وقالوا: إنه ضرة ثانية»: وفي هذه الرحلة بعث الأستاذ بصورة فتوغرافية إلى الوزير محمد البكوش، وكتب عليها من نظمه:

لما شكتْ شحطَ النوى روحي التي ... أبقيتها عند الأَحبَّةِ بالوطنْ
أرسلتُ تمثالي لها بوّاً عسى ... تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدنْ

وسافر الفقيد رفيقاً للوزير خير الدين باشا إلى الآستانة، وامتدح السلطان العثماني بقصيدة، فأمر بمكافأته عليها بوسام، فأبى، وقال للمرسل من جانب السلطان: إن حمل الوسام مما لا يرغب فيه أهل العلم ببلادنا، بل يرونه بحكم العادة مزرياً بمقامهم.

وكان يلقي في شهر رمضان من كل سنة درساً من «صحيح البخاري» بجامع (سبحان الله) ودرساً من كتاب «الموطأ» في المدرسة المنتصرية، ويشهدهما صاحب المملكة التونسية سمو الباي وكبير الوزراء في مجمع حافل من أعيان العلماء، وتجري فيهما مباحثات من أقران الأستاذ، أو نجباء تلاميذه، وقد يورد بعض الأبحاث الأمير نفسه متى كان من رجال العلم؛ مثل: المغفور

له الناصر باي، وهذه الدروس التي كان يلقيها الفقيد بعناية، لا تزال محفوظة، إذ كان يحررها كتابة قبل يومها المشهود.

واشتهر بالفلسفة في العلوم الإسلامية، فكان مورد المستشرقين، ومن تشتد عنايتهم للاطلاع على حقائق الإسلام من فرنسيين وغيرهم، فيجاذبهم أطراف المحاورة بنفس مطمئنة، وأدب جميل.

وكان يقوم بالخطابة والإمامة بالجامع المعروف بجامع (سبحان الله)، ويلقي خطباً يراعي في إنشائها ما تستدعيه حال الزمان والمكان. ومما ابتكره في الخطابة: أنه كان يعمد إلى ما يرد في الخطبة من حديث أو آية يسبق إلى ظنه أنه بعيد المأخذ من أفهام السامعين، فيشرحه بعبارات يصوغها على طريقة بيانه في التدريس، وقد ظهر قسم من هذه الخطب مطبوعاً في تونس منذ ثلاث عشرة سنة.

وكان يشد أزر القائمين على بعض الأعمال الإصلاحية، وكان النشء الناهض يلتف حوله، ولهذا انتخبوه للخطابة في حفلة افتتاح المدرسة الخلدونية التي تعد شعبة من جامع الزيتونة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ.

وأذكر أني كنت أنشأت مجلة علمية أدبية تسمى: «السعادة العظمى»، فتحركت بعض النفوس الخاملة لكتم أنفاسها، فقال لي الأستاذ حال انصرافنا من درس «صحيح البخاري»: لا تعبأ بما يلقيه هؤلاء في سبيل عملك، وتأس بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ قال له ورقة بن نوفل: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.

وكان للفقيد عاطفة أدبية تسمو به إلى الاحتفاء بالعلماء الوافدين على الحاضرة، ويذل المستطاع في مجاملتهم. زار فيلسوف الإسلام الأستاذ الشيخ

محمد عبده البلاد التونسية سنة ١٣٢١، ونزل ضيفاً مكرماً في بيت حضرة السيد خليل أبي حاجب نجل الفقيد، وهو اليوم وكيل وزير الداخلية بتونس، فعرف الفقيد فضل الأستاذ الشيخ محمد عبده، وكان يقضي جلّ اوقاته في مؤانسته ومذاكرته العلمية أو الأدبية أو الإصلاحية.

وورد عالم الجريد الشيخ إبراهيم أبو علاق الحاضرة، وأتى درس الفقيد بجامع الزيتونة، ولم تنعقد صلة التعارف بينهما بعد، فاخذ يناقش الأستاذ في المبحث الذي كان بصدد تقريره، ولما طال أمد المناقشة، ووقع في ظنّ الفقيد أن ليس الغرض منها طلب الحقيقة، بدرت منه كلمة كبرت على مسمع الشيخ أبي علاق، فانصرف عن الدرس وقال:

تقاصرتُ مذ أبدى التطاولَ سالمٌ   وسالَمتُ والقاصي المكان يُسالمُ

ولما وصل نبأ هذا البيت إلى مجلس الفقيد، نهض في الحال للقاء الشيخ أبي علاق، فاسترضاه، وخطب مودته، ودامت بينهما الصداقة المحكمة.

وتحلى الفقيد بآداب راقية؛ مثل: التواضع، والحلم، والصراحة، فازداد شرفاً على شرف العبقرية، وانجذبت له القلوب بعاطفة المحبة بعد امتلائها بمهابته وإجلاله، حتى إذا حضر مجتمعاً خاصاً أو عاماً، مسك بعنان المجلس، وأخذ ينشر على أسماع الحاضرين من غرائب المسائل ولطائف الأدب ما يخيل إليهم أنهم في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية، وكنا نرى أهل العلم والأدب يقصدون في الاحتفالات الجامعة إلى أن تكون مجالسهم بمقربة من مجلس الفقيد؛ حرصاً على اقتباس أدب مؤنس، أو اقتناص علم غريب.

وانفرد بين علماء جامع الزيتونة بأنه كان يتزيا في لباسه بزي علماء

الشرق؛ أي: يلبس القفطان والجبة المفتوحة من أمام، ويضع عليهما البرنس، ولم يكن يلتزم تقاليد أهل العلم وذوي المناصب الشرعية في بلاده، حتى إنه كان يلبس الجزمة أيام كان لبس أهل العلم لها شيئاً نكراً، ويتجول في بعض المتنزهات العامة راجلاً، وغيره من ذوي المناصب العالية لا يغشونها إلا مروراً في عرباتهم.

وكانت له عند افتتاح الكلام عقدة خفيفة لذيذة على السمع، حتى إذا انطلق لسانه في التقرير، سمعت العربية الفصحى، ولهجة تتسوغها الأسماع بارتياح وإعجاب.

ومن المعروف عن الأستاذ: أنه كان يطمح إلى طول الحياة، ويمثل حركة الساعة الميقاتية بحسيس الأرَضَة في أكلها من عمر الإنسان، وينقل عنه في تعليل عدم حمله للساعة: أنه يكره أن يسمع أو يرى آلة تذكره كيف تنقضي حياته العزيزة شيئاً فشيئاً.

هذا ما أجده في الذاكرة من مآثر حياة الأستاذ الذي فارقته - وبودي لا أفارقه - برحلتي إلى بلاد الشرق سنة ١٣٣١، وقد ناهز التسعين من عمره. اهـ.

* عِلاوة:

حكى الأستاذ: أن أحد الباشاوات من قواد الجند بالآستانة دعاه إلى منزله في طائفة من أهل العلم، ومما دار بينهم في المذاكرة: أن صاحب المنزل سأله عن حكم تعلم الجغرافية، فقال له: إن تعلمها من فروض الكفاية. قال الأستاذ: فالتفت ذلك الباشا إلى أحد الفقهاء بالمجلس، وقال له: لماذا كنت تقول لي: إن تعلمها حرام؟ فأقبل ذلك الفقيه على الأستاذ، وقال له:

ما دليلك على ما تقول من أن تعلم الجغرافية من الواجبات؟ قال: فلم أرد أن أطيل الحديث في الاستدلال بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال: ٦٠]، واخترت أن أورد كلمة تكون أقرب إلى فهم السائل، فقلت موجهاً الخطاب لصاحب المنزل: إذا صدرت إرادة السلطان، يأمرك أن تسير بقسم من الجيش إلى بعض بلاد العدو، وكنت تجهل المسافة التي بينك وبين ذلك البلد، ثم لم تكن على خبرة مما يوجد في تلك النواحي من ضروريات حياة الجند وما لا يوجد، فإنك بلا ريب تذهب على غير هدى، ولا تأمن أن يقع الجيش في تهلكة. فوقع الجواب من نفس الباشا موقع الارتياح والقبول.

وفيما حكى الأستاذ من هذه المحاورات: أن أحد المستشرقين سأله عن الوجه في إباحة الإسلام تزوج المسلم بالكتابية من مسيحية أو إسرائيلية، ومنعه المسلمة من أن تتزوج مسيحياً أو إسرائيلياً. وقال السائل: ما هذا الحكم إلا ضرب من التعصب في الدين! فأجابه الأستاذ: بأنه حكم قائم على حكمة عمرانية بالغة، وهي أن النكاح يقصد به التعاون على مرافق الحياة، وهذا الغرض لا يتحقق إلا مع التآلف، وانتظام حلّة المعاشرة، ومن المعروف أن المسلم يؤمن بالرسول الذي تؤمن به الكتابية، ويعتقد بصحة دينها في الجملة، فلا يتوقع أن يصدر منه ما يجرح إحساسها، ويكدر صفو المعاشرة بينهما، وأما الكتابي غير المسلم، فإنه لعدم إيمانه بصحة الإسلام وصدق الرسول الذي جاء بشريعته، قد يؤذي المسلمة بما يقذفه من كلمات يطعن بها في أصل دينها، أو ينال بها من كرامة الرسول الذي تعتنق شريعته.

وحكى لنا الفقيد: أن الأستاذ الشيخ محمد عبده تكلم على ضرورة

الاجتهاد في الأحكام الشرعية، حتى قال: ينبغي إهمال كتب الفقهاء وإتلافها بالإحراق. قال: فقلت له: لا بأس بإبقائها والاستعانة بها؛ لأنها لا تخلو من فوائد. فقال لي: فلتبق.



فهرس الموضوعات

